ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٦ ، السنـــــة : ٤٨

جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ ، ديسمبر٢٠٢٣م – يناير ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- مسؤولية أهل العلم في الأوضاع الراهنة — التحرير — ٣

كلمة العدد

- السنة النبوية تشريع لأمور الدنيا والدين . . . . — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- صلة الأرحام من أعظم الفضائل الأخلاقية في الإسلام — الأستاذ محمد رجاء حنفي — ١٤
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ١٩
- أثر الحضارة الغربية في حياتنا — الدكتور عبد العزيز الخياط — ٢٤
- البركة: مفاهيم وأسرار — الدكتور علي مدني رضوان الخطيب — ٢٨
- أهداف مجتمع الإسلام — الدكتور مصطفى عبد الواحد — ٣٢
- أبو حازم وسليمان بن عبد الملك — الدكتور عبد الرحمن عميرة — ٤١
- من خصائص التربية الإسلامية — الأستاذ حسن عزوزي — ٤٦

إشراقة

- المدارس في الهند بين ما كانت عليه وما صارت إليه — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

مسؤولية أهل العلم في الأوضاع الراهنة

رفع الله تعالى العلم وأهله مكانًا عليًّا، و وعد هم من الأجر والثواب والعز والكرامة ما لايزاحمهم فيه غيرهم، وبقدر ذلك كان الواجب عليهم عظيمًا وشاقًّا من التبليغ والبيان والكشف بما يصلح دين الناس ومعادهم، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يقي الناس الوقوع فيما حرمه الشريعة الإسلامية عليهم، وقد نبَّه سبحانه وتعالى على وظيفتهم هذه في غير ما آية قرآنية، و حثهم على القيام بواجبهم، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦].

وفي الوقت الذي تكثر فيه الفتن، وتتلاحق الأزمات، وتتلاطم المحن: محنة الرجل في نفسه ودينه وماله، وتستحكم فيه الأهواء، ويلتبس فيه الحق بالباطل على كثير من الناس، فيتبعون كل ناعق، ويميلون مع كل ريح، ويرهبون من كل ناعب، ويسيرون وراء كل داعٍ، ولو إلى الضلال والغواية، وتتوالى أنباء الارتداد عن الدين في أبناء المسلمين وبناتهم، ويصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا لايعدل جناح بعوضة، تتأكد أهمية أهل العلم وتشتد الحاجة إليهم؛ فهم مصابيح الغياهب والدجى ومشاعل الهداية والرشاد، يخرجون الناس من الظلمات إلى النور، وإليهم تتلهف الأمة الإسلامية، وإلى دورهم تستشرف لكشف ما هم فيه من النكبات والنكسات. ففي حديث المغيرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وغيره قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لايزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» [البخاري:٦٧٦٧؛ مسلم:٣٥٤٥]. والعلماء هم سادة هذه الطائفة الظاهرة المنصورة.

ومن هنا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وعن قيسٍ، قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:يا أيها الناسُ، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:١٠٥] - قال عن خالد-: وإنا سمعنا النبيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «إنّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يدَيه أوشك أن يعُمَّهم الله بعقاب». وقال عمرو، عن هُشَيم: وإني سمعت رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يَقدِرُونَ على أن يُغيِّروا، ثم لا يُغيِّروا إلا يوشِكُ أن يعمَّهُمُ الله منه بعقاب» [سنن أبي داود:٤٣٣٨].

فالله الله يا علماء الإسلام، قوموا وأدركوا هذه الأمة التي تمر بمرحلة ذات حساسية وخطورة بالغة من أن تقع في الهاوية، ويستشري فيهم داء الأمم قبلها فيهلكهم كما أهلكهم فيكون مصيرها ما صارت إليه؛ فبِكُم تُبحرُ سفينةُ هذه الأمة إلى برالأمان. وانصروا دين الله تعالى ينصركم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]. فلابد من الوقوف في وجه الضلال والانحراف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ولابد من التآزر والتكاتف وتوحيد الكلمة و تنظيم الجهود وتنسيق الطاقات وترصيص الصفوف. اللّٰهم ألهمنا رشدنا، وقنا شر أنفسنا. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة الثامنة مساءً من يوم الثلاثاء: ٢١/ربيع الآخر ١٤٤٥هـ = ٦/نوفمبر٢٠٢٣م).

السنة النبوية تشريع لأمور الدنيا والدين مالم يأتِ دليل على خلافه

يكثر الحديث اليوم على ألسنة المراوغين في الأمور الشرعية بأن السنة النبوية لاتتوجه إلى الأمور الدنيوية؛ فالأمر فيها راجع إلى اجتهاد المرء ورأيه يتصرف فيها كيف يشاء، يحلل منها ما يشاء ويحرم منها ما لايخدم مصالحه واجتهاده؛ بل هوى نفسه.

والسؤال نفسه يطرح هنا: هل حقا لايتعلق الخطاب الشرعي – أمرًا ونهيًا وتخييرًا – إلا بأمور الدين؟ وهل كان الصحابة – وهم المخاطبون الأولون للنصوص الشرعية، وهم الذين شاهدوا التنزيل وصاحبوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم بمعاني النصوص الشرعية وأغراضها ومقاصدها- فهموا أنهم أحرار في أمور دنياهم من المعيشة والاقتصاد، وأن الشريعة إنما جاءت لترشد البشرية إلى أمور الدين لا إلى أمور الدنيا؟

والحق أن الخطاب الشرعي- من قرآن وسنة نبوية- يتوجه إلى أمور الدنيا والدين معًا، دون تفريق بينهما. والأدلة عليه كثيرة أكثر من أن تحصى وتعد. فمثلا: عيادة المريض: عقد الإمام البخاري باب «وجوب عيادة المريض» ثم ساق فيه حديث أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني»[1].

وعقد الإمام ابن ماجه في سننه «باب ما جاء في عيادة المريض»، وساق حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «للمسلم على المسلم ستة بالمعروف: يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويتبع جنازته إذا مات، ويحب له ما يحب لنفسه»[2].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وعيادة المريض تعلق بها الخطاب الشرعي أمرًا وحثًّا عليها مع أنها أمر اجتماعي يخص التواصل والألفة بين الناس.

والدواء والعلاج من مصالح ومنافع الناس في الدنيا، وفيه دخل كبير للتجربة، ورغم ذلك تعلق به الخطاب الشرعي، فتجد كمًّا هائلا من الأحاديث التوجيهية في هذا الباب في كتاب الطب أو كتاب المرضى من صحيح البخاري وغيره من دواوين السنة النبوية[3]، منها حديث التداوي بالعسل، رواه

(١) صحيح البخاري [٥٦٤٩].
(٢) سنن ابن ماجه [١٤٣٣].
(٣) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام لصاحبه علي بن نايف الشحود ٣/٢٣٧.

البخاري في صحيحه: عن أبي سعيد: أن رجلا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال:«اسقه عسلا» ثم أتى الثانية، فقال: «اسقه عسلا» ثم أتاه الثالثة فقال:«اسقه عسلا» ثم أتاه فقال: قد فعلت؟ فقال: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلا» فسقاه فبرأ[٤].

يقول العلامة ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل ما قاله-ﷺ- بعد النبوة، وأُقر عليه ولم ينسخ؛ فهو تشريع، لكن التشريع يتضمن الإيجاب والتحريم والإباحة، ويدخل في ذلك ما دل عليه من المنافع في الطب؛ فإنه يتضمن إباحة ذلك الدواء والانتفاع به، فهو شرع لإباحته، وقد يكون شرعًا لاستحبابه؛ فإن الناس قد تنازعوا في التداوي: هل هو مباح أو مستحب أو واجب؟ و التحقيق أن منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب، وقد يكون منه ما هو واجب، وهو ما يُعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره، كما يجب أكل الميتة عند الضرورة؛ فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، وقد قال مسروق: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار. فقد يحصل أحيانًا للإنسان إذا استحر المرض ما إن لم يتعالج معه مات، والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة؛ كالتغذية للضعيف، وكاستخراج الدم أحيانًا. والمقصود أن جميع أقواله يُستفاد منها شرع، وهو - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما رآهم يلقحون النخل قال لهم: «ما أرى هذا» - يعني شيئا- ثم قال لهم: «إنما ظننت ظنًّا؛ فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله؛ فلن أكذب على الله»[٥]، وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم؛ فما كان من أمر دينكم فإلي»[٦]، وهو لم ينههم عن التلقيح، لكن هم غلطوا في ظنهم أنه نهاهم، كما غلط من غلط في ظنه أن (الخيط الأبيض) و(الخيط الأسود) هو الحبل الأبيض و الأسود»[٧].

وقال الإمام أبو داود في السنن: «أول كتاب الطب باب الرجل يتداوى». ثم ساق حديث أسامةَ بنِ شَريكٍ، قال: أتيتُ رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابُه كأنما على رؤوسِهُم الطيرُ، فَسَلَّمتُ ثُمَّ قَعَدْتُ، فجاء الأعرابُ مِن هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أنتداوى؟ فقال: «تَدَاوَوْا، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ دَاءً إلا وضع له دَوَاءً غيرَ داءٍ واحدٍ الهَرَمُ»[٨].

وأجدر بنا أن نسوق هنا كلام ابن القيم رحمه الله في الطب النبوي، ليعتبر به من يؤمنون بطب الأطباء قديمًا وحديثًا ويرونه حجةً ودليلا في علاج

---

(٤) صحيح البخاري [٥٦٨٤].

(٥) رواه مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا،(٢٣٦١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٦) رواه مسلم في (الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، ٢٣٦٣) ، وأحمد في المسند (١٢٥٤٤)؛ كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧) مجموع الفتاوى ١٨/١١-١٢.

(٨) سنن أبي داود ٣٨٥٥.

الأمراض، وهو لا يعدو قياسًا وإلهامات، ومنامات، وحدسًا صائبا- على اختلاف الأقوال بينهم-، وأما الطب النبوي فوحي أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ الذي علمه الله الطبين: الجسماني والروحاني؛ ليكون رحمة للعالمين من جميع النواحي وهدى لهم من كل وجه. يقول ابن القيم رحمه الله:

«ونحن نقول: إن ها هنا أمرًا آخر، نسبة طب الأطباء إليه كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم، وقد اعترف به حذاقهم وأئمتهم، فإن ما عندهم من العلم بالطب منهم من يقول: هو قياس، ومنهم من يقول هو تجربة. ومنهم من يقول هو إلهامات، ومنامات، وحدس صائب. ومنهم من يقول: أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية، كما نشاهد السنانير إذا أكلت ذوات السموم تعمد إلى السراج، فتلغ في الزيت تتداوى به، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض، وقد عشيت أبصارها تأتي إلى ورق الرازيانج، فتمر عيونها عليها. وكما عهد من الطير الذي يحتقن بماء البحر عند انحباس طبعه، وأمثال ذلك مما ذكر في مبادىء الطب. وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي الذي يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره، فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء، بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم تهتد إليه عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليه علومهم وتجاربهم، ومن الأدوية القلبية، والروحانية، قوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته، ولا قياسه». انتهى كلامه[٩].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وليس طبه ﷺ كطب الآباء، فإن طب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متيقن قطعي إلهي، صادر عن الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل. وطب غيره، أكثره حدس وظنون، وتجارب، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور- إن لم يتلق هذا التلقي- لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها؛ بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم، ومرضًا إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبدان منه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة و القلوب الحية، فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن

(٩) الطب النبوي لابن القيم ص ٥.

لخبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قبوله، والله الموفق[١٠].

والمعاملات المالية وهي من أمور الدنيا كثرت التوجيهات النبوية في شتى صورها وألوانها وأنواعها، فمما ورد في شروط الثمن وما يصلح ثمنًا في البيع ما رواه مسلم في صحيحه (١٥٧٩) عن عبد الرحمن بن وعلة السبائي، من أهل مصر، أنه سأل عبد الله بن عباس، عما يعصر من العنب، فقال ابن عباس: إن رجلا أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل علمت أن الله قد حرمها؟» قال: لا، فسارّ إنسانًا، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بم سارررته؟»، فقال: أمرته ببيعها، فقال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها»، قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها».

ومما ورد في السياسة الشرعية في خصوص تعدد الأئمة في الإمامة الكبرى ما رواه مسلم في صحيحه (١٨٥٣) عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا بويع لخليفتين، فاقتلوا الآخر منهما».

وتجد توجيهات نبوية وافرة في كتب السنة تحت باب اللباس والزينة، فيما يخص اللباس والزينة وما يجوز لبسه وما لايجوز، وهي من الأمور الدنيوية. فقد عقد الإمام مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة وساق فيه أحاديث كثيرة، ومنها حديث أبي فروة، أنه سمع عبد الله بن عُكيم، قال: كنا مع حذيفة بالمدائن، فاستسقى حذيفة، فجاءه دهقان بشراب في إناء من فضة فرماه به، وقال: إني أخبركم أني قد أمرته أن لا يسقيني فيه، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسوا الديباج والحرير؛ فإنه لهم في الدنيا وهو لكم في الآخرة يوم القيامة»[٢٠٦٧].

ومنها: حديث ابن عمر، أن عمر بن الخطاب، رأى حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك، فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة»، ثم جاءت رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها حلل، فأعطى عمر منها حلة، فقال عمر: يا رسول الله، كسوتنيها، وقد قلت في حلة عطارد ما قلت، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لم أكسكها لتلبسها»، فكساها عمر أخا له مشركا بمكة[٢٠٦٨].

ومنها: توجيهاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كراء الأرض الزراعية. وتفاصيله في كتاب كراء الأرض و المساقاة والمزارعة من كتب السنة. أليس ذلك كله من أمور الدنيا؟

وعقد الإمام البخاري في صحيحه (٢٣٣٢) باب ما يكره من الشروط في المزارعة، وساق فيه حديث رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا أكثر أهل المدينة حقلا، وكان أحدنا يكري أرضه، فيقول : هذه

[١٠] الطب النبوي لابن القيم ص ٢٩.

القطعة لي وهذه لك، فربما أخرجت ذه ولم تخرج ذه، «فنهاهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ».

وعقد الإمام مسلم في صحيحه (١٥٥١) باب المساقاة، والمعاملة بجزء من الثمر و الزرع، ومن الأحاديث التي ذكر فيها حديث ابن عمر، قال: «أعطى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خيبر بشطر ما يخرج من ثمر أو زرع، فكان يعطي أزواجه كل سنة مئة وسق، ثمانين وسقا من تمر، وعشرين وسقا من شعير»، «فلما ولي عمر وقسمَ خيبر، خيَّر أزواج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقطع لهن الأرض والماء، أو يضمن لهن الأوساق كل عام، فاختلفن، فمنهن من اختار الأرض والماء، ومنهن من اختار الأوساق كل عام، فكانت عائشة، وحفصة ممن اختارتا الأرض و الماء».

وعقد الإمام أبو داود في سننه بابا في المزارعة باب في التشديد في ذلك، وساق حديث سالم بن عبد الله بن عمر، أن ابن عمر، كان يكري أرضه حتى بلغه أن رافع بن خديج الأنصاري، حدث «أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان ينهى عن كراء الأرض» فلقيه عبد الله، فقال: يا ابن خديج، ماذا تحدث عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كراء الأرض؟، قال رافع لعبد الله بن عمر: سمعت عمي وكانا قد شهدا بدرا يحدثان أهل الدار، «أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نهى عن كراء الأرض». قال عبد الله: «والله لقد كنت أعلم في عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الأرض تكرى». «ثم خشي عبد الله أن يكون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أحدث في ذلك شيئا لم يكن علمه فترك كراء الأرض» (رقم الحديث ٣٣٩٤).

فهذه الأحاديث- التي ذكرناها والتي لم نذكرها، والتي تتحدث عن الأمور الدنيوية- تؤكد صراحة أن الخطاب الشرعي يتعلق بالأمور الدنيوية تعلقه بالأمور الأخروية على حد سواء، وأن الصحابة رضي الله عنهم حملوا أحاديثه ﷺ على التشريع ما لم يدل على خلافه دليل أو قرينة تصرفها عن التشريع إلى الإرشاد أو المشورة ونحو ذلك. ولو ذهبنا إلى القول بأن الخطاب الشرعي لايتعلق بالأمور الدنيوية لأدى ذلك إلى التخلي عن كثير من الأحكام الشرعية، واستلزم ذلك نقض كثير من عرى الإسلام وتبديل الشريعة، ولايقول به أحد يحمل في قلبه حبة من خردل من إيمان.

اللّٰهم أرنا الحق حقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنابه. وقِنَا أن يروج علينا خطل الرأي ببريق عبارة، وتحسين إشارة. والله الهادي إلى السداد، الموفق إلى الرشاد، وكفى به هاديًا ورشيدًا.

في كل يوم ترى منهم أخا خطل
يقول: أذعن غير مختار

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

سورة الأنعام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

السورة مكية إلا آيات عند بعض أهل العلم. ورد أن السورة نزلت كلها مرةً واحدةً ومعها مالايحصى من الملائكة. وأنكر ابن الصلاح في «فتاواه» صحة هذه الروايات الدالة على نزول السورة كلها مرةً واحدةً. والله أعلم. وقال أبو إسحاق الإسفرائيني: اشتملت هذه السورة على جميع مبادئ وقواعد التوحيد.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

يعتقد المجوس خالقين للعالم: يزدان، وهو خالق الخير، وأهرمن وهو خالق الشر. ويلقبونهما بالنور والظلمة. ويؤمن الهندوس في الهند بثلاث مئة مليون إله. وأما الآرية فرغم ادعائها التوحيد، تعتبر المادة والروح مخلوقتين وأبديتين مثل الله تعالى. ويعتبرون الله تعالى في حاجة إليهما في صفة التكوين والخلق وغيرهما. واضطرت النصارى للموازنة والتسوية بين الأب والابن إلى العقيدة المشهورة القائلة بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة. ووصف اليهود الله تعالى بصفات يساويه فيها؛ بل قد يفوقه أدنى البشر. وتوسع مشركو العرب في توزيع الألوهية توسعًا جعلهم يعتبرون كل حجر من الجبل صالحا لأن يكون معبودًا وإلها. فلم يترك الناس النار ولا الماء ولا الشمس ولا القمر ولا الكوكب ولا الشجر ولا الحجر ولا الحيوان إلا منحوه شيئًا من الألوهية، وسوَّوا بينه وبين الله تعالى عند العبادة والاستعانة ونحوهما مع أن الله تعالى الجامع بين صفات الكمال، والمنبع لأنواع الميزات والخصائص هو المستحق للحمد والثناء بأنواعه وشتى صوره وأشكاله من غير أن يشاركه فيه أحد غيره. وهو الذي خلق السماء والأرض أي كل ما في الأعلى وفي الأسفل. فجعل الليل والنهار، والنور والعلم والجهل والهداية والضلال والموت والحياة وغيرها من الكيفيات المتقابلة والأحوال المتضادة. وهو في غنى في أفعاله عن مساهمة أحد أو الاستعانة به، فليس له زوجة ولا ولده، ولايشاركه أحد في

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

ألوهيتـه ومعبوديتـه، ولا يغلبـه أحـد في ربوبيتـه، ولايخضع لضغوط أحد عليه، ثم ما أعجب أن يعدل الناس بربهم أحدًا مع علمهم بهذه الحقائق.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

سبق بيان خلق العالم الكبير، وهنا بيان خلق العالم الصغير-الإنسان-، ألا ترونه خلق تمثال آدم من الطين لاحياة فيه، ثم كيف أفاض عليه الحياة والكمال الإنساني. ويُخرج التراب ليومنا هذا الأغذية، وتنشأ عنها النطفة، ويتكون الإنسان من النطفة. وهكذا أخرجهم من العدم إلى الوجود ثم جعل لكل واحد منهم أجلا يموت فيه. ويعود الإنسان مرة أخرى إلى التراب الذي خلِق منه. ولكم أن تقيسوا عليه أن العالم الكبير لفنائه أجل مسمى، يطلق عليه القيامة الكبرى. و إن القيامة الصغرى - وهي الأموات الشخصية - تتوالى، ويكون الناس على علمٍ بها، وأما القيامة الكبرى فلايعلم موعدها بالتحديد إلا الله تعالى. وما أعجب أن يتردد الإنسان في فناء العالم الكبير وهو يرى الحياة والفناء في العالم الصغير وهم البشر.

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

أي هو المعبود المالك الملك المتصرف المدبر في السماوات والأرض كلها. وهذا الاسم المبارك - الله- يختص بذاته العالية الصفات. فأنى استحق غيره الألوهية؟

فائدة:

وحيث إنه يتحكم وحده في السماوات والأرض كلها، وهو مطلع مباشرة على كل ظاهر وخفي، وعمل الإنسان الظاهر والباطن والصغير والكبير، فإن العابد في غنى عن إشراك غير الله تعالى في عبادته واستعانته ونحوهما. وهذا رد على ما كان المشركون وأشباههم يقولون: (مَا نَعْبُدُهُمْ اِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَآ اِلَى اللّٰهِ زُلْفٰى)[الزمر/٣]. وقوله السابق: (وَاَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَه) الذي كان يشير إلى القيامة، فهنا تنبيه على المجازاة بأن السماوات والأرض خاضعة لحكمنا، كما أننا على علم بأعمالكم الخافية والصالحة والسيئة، فلامعنى لأن تتركوا سدى.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾

يمكن حمل الآيات على الآيات التكوينية أو على الآيات التنزيلية [القرآنية].

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

لعل المراد بالحق هو القرآن الكريم، الذي يبين سوء عاقبة الغافلين عن آيات القدرة الإلهية وعقوبتهم في الدنيا والأخرة. فكان المنكرون يستهزئون بها حين يسمعونها، فذكرهم بأن الذي تستهزئون به وتسخرون منه عسى أن يتمثل حقيقة ثابتة بين أيديكم، ثم أشار إلى الأمم التي أهلكت من جراء تكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها؛ وبأعمالهم السيئة.

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

أي عاد وثمود وغيرهم الذين أعطوا من القوة والأسباب فوق ما أعطِيتم، فكانت بساتينهم وزروعهم خضرا لأجل الأمطار والأنهار، وساد فيهم الرخاء والسخاء، لما أصروا على البغي والتكذيب، واستهزؤوا بآيات القدرة، أخذناهم بجريمتهم، فلم ندع لهم أثرا ولاعينا، ثم خلِقت أمم أخرى بعدهم، واستمرت هذه المعاملة مع المنكرين والمكذبين. فهلك المجرمون، دون أن يتخل بهم عمارة العالم.

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قال بعض المشركين: لو أنزلت من السماء كتابا مكتوبا، ونزل معه أربعة ملائكة يشهدون لنا أنه كتاب أرسله الله تعالى، آمنا بك. فرد عليهم: إن الذين يعتبرون القرآن الكريم في وضعه الحالي سحرًا، ويصفون من نزل عليه بأنه ساحر، لو أننا نزلنا عليهم كتابا في قرطاس من السماء، فلمسوه بأيديهم، وعلموا أنه ليس تخيلًا وسحر عين، لقالوا: إنه سحر بحت. فالشقي الذي حرم الهداية لاتزول شبهته أبدًا.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

أي الذي يشهد لنا بأنه صادق.

فائدة:

لو نزل الملك في صورته الأصلية لم يتحملوه دقيقةً واحدةً، ولفاضت نفوسهم خوفًا منه. ولايتحمل إلا الرسل الملك في صورته الأصلية. ورأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبرئيل مرتين في عمره في صورته الأصلية، ولم يثبت ذلك لنبي ولو مرة واحدة. ثم لو استجبنا لطلبهم هذا الخارق للعادة، ثم لم يؤمنوا، كما يتجلى من أحوالهم ومواقفهم الظاهرة، لم يُمهَلوا أبدا كما هو سنة الله تعالى، ولنزل عليهم عذاب يقطع دابر هؤلاء المطالبين. وعليه كان عدم الاستجابة لمثل هذه الطلبات عين الرحمة.

وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

سبق نفي إرسال الملك في صورته الأصلية في الآية الماضية، وفي هذه الآية جواب عن الاحتمال الآخر، وهو أن يرسل الملك في صورة بشر، فإن المجانسة الصورية حينئذ تمكن الناس من الانتفاع بأسوته وتعليمه. ولكن لاتزول شبهات المنكرين حتى على هذا الوجه، فإنهم سيواصلون توجيه الشكوك والشبهات - التي كانوا يوجهونها إلى كون الرسول بشرا - إلى نزول الملك بشرا.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

فائدة:

بعد أن أجاب عن طلبات المعاندين، جاءت تسلية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأن لايحزن على استهزائهم، فإنه ليس بدعًا من الأمر، فإن الأنبياء السابقين قد تعرضوا لمثل هذه الأوضاع. ثم لايخفى على أحد ما صار إليه مَن كذبهم وعاندهم. وكذلك قد يعذب الله تعالى هؤلاء بمثل ما عذّب به المجرمين السابقين.

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

أي بعد السير في البلاد، ومشاهدة آثار الأمم الهالكة إذا نظرتم في القصص الماضية بعين العبرة تبين لكم مصير الأمم التي كذبت الرسل في الدنيا، وقيسوا به مصير المستهزئين على مصير المكذبين.

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

مادام حكمه في السماوات والأرض كلها، كما يقرُّ به المشركون أيضًا، فأنى يكون للمكذبين والمستهزئين محيص عن العقوبة العاجلة؟ وليس إلا رحمة الله تعالى العامة أنه لايعجل العقوبة على الذنوب والجرائم. وإنما يعاقب يوم القيامة - ولابد أن يأتي- الأشقياء الذين تعمدوا بإلقاء أنفسهم في الهلاك والضرر على كفرهم.

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

في قوله: (قُلْ لِّمَنْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ) تعميم للمكان، وفي قوله: (وَلَه مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهَارِ) تعميم بالنظر إلى الزمان، أي له الحكم في كل مكان وفي كل زمان، وكل ما يسكن براحة في الليل أو النهار، في منجاة من الأعداء معلومين وغير معلومين؛ كل ذلك من آثار رحمته الكاملة (قُلْ مَنْ يّكْلَؤُكُمْ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ) [الأنبياء:٤٢]. وهو الذي يسمع في ضجات النهار، وظلمات وسكون الليل صوت كل منادٍ، ويعلم حاجاتهم جميعا كل العلم. أفرأيتم هل يليق الإعراض عن مثل هذا الرب العظيم، والاستعانة بغيره؟

فائدة:

(يُطْعِمُ) إشارة إلى توفير أسباب البقاء، أي كلهم في حاجة إليه في الإيجاد والبقاء. ولايحتاج إلينا في شيء من أمرنا. فمن السفه الإعراض عنه واتخاذ غيره ناصرًا معينا.

فائدة:

أمر أكمل العباد - الذي أرسل إلى الدنيا ليكون أسوة ونموذجًا في الطاعة والعبادة - أولا بالخضوع والانقياد لأوامر مثل هذا الرب سبحانه.

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

فائدة:

وجه الخطاب إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والمراد إسماع غيره صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أي على سبيل الفرض لو صدر عن عبد معصوم ومصطفى من عباد الله تعالى العصيان، فالخوف من عذاب الله قائم، فأنى يليق أن يأمن عذاب الله تعالى مَن يركب آلاف أنواع الجرائم من الشرك والكفر وتكذيب الأنبياء عليهم السلام.

مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦

إن الحصول على الجنة والرضا الإلهي منزلة سامية جدا، فلو أن المرء زحزح عنه يوم القيامة العذاب لكان فوزا عظيما له، كما قال عمر: كفافا، لا لي ولا علي.

وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨

لايسع أحدًا أن يقاوم و يردَّ ما يصيب الله تعالى به أحدًا من مصيبة أو راحة في الدنيا أو الآخرة، كما لايسعه أن يهرب من قدرته وغلبته، فهو خبير بما هو عليه كل أحد، وما يفعله به على وفق أوضاعه وأحواله هو الذي يتطلبه الحكمة.

قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩

وحيث نبه الله على أن بيده النفع والضر، وهو قاهر غالب على عباده، وخبير بما دق وجل، فهل ثمة شهادة أعظم وأشد إخلاصًا من شهادته؟ فأُشهد الله تعالى بيني وبينكم، فإن ما بلغتكم - بعد أن ادعيت النبوة- من الرسالة، وما أجبتموني به، ثم موقفكم من الرسالة الإلهية، كل ذلك يراه سبحانه وتعالى، فهو يفصل بيني وبينكم بعلمه المحيط.

فائدة:

أي هذا القرآن شهادة بينة من الله تعالى على صدقي، فهو بدوره دليل على أنه كلام الله تعالى.

فإنه كما يقال: طلوع الشمس دليل على وجودها. وإنما علي أن أحذركم وكل من يبلغه هذا الكلام برسالة الله تعالى التي تتضمن التوحيد والمعاد وغيرهما من الهداية إلى أصول الدين كلها. أفبعد أن تمت الحجة، وسمعتم هذا الكلام القاطع الصريح في التوحيد، تصرون على القول بإله غير الله تعالى؟ فأنتم وشأنكم، وأما أنا فهيهات أن يجري على لساني مثل هذا القول؛ بل أقول لكم بكل وضوح: لايستحق العبادة إلا الله تعالى. وأنا بريء مما تشركون به غيره.

تنبيه:

قوله: (وَ مَنۢ بَلَغَ) فيه تنبيه على أن رسالة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للجن والإنس والشرق والغرب كلهم.

* * *

صلة الأرحام من أعظم الفضائل الأخلاقية في الإسلام

بقلم: الأستاذ/ محمد رجاء حنفي

خص الإسلام بعض الفئات بمزيد من العناية والاهتمام، وذلك لما بينها من علاقات وصلات، وروابط وأواصر قربى، أو روابط صداقة وجوار.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الفئات والأنواع، في قول الحق سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ (النساء:٣٦).

وهذه الصلات هي على الترتيب كالتالي:

طاعة المولى سبحانه وتعالى: وذلك بالعبادة الخالصة، لرابطة الربوبية، وأنه سبحانه هو الخالق، وهو الواجد.

فقد أوصى بالوالدين: إذ هما أحق الناس بعد المولى سبحانه وتعالى بالشكر والإحسان، وأمرنا بالتزام البر والطاعة لهما، وما من آية من آيات القرآن الكريم دعت إلى عبادة الحق سبحانه إلا واقترنت بالإحسان إلى الوالدين.

كما أوصى بذي القربى: وهو الأرحام، لرابطة النسب.

واليتامى الذين مات عنهم والدهم ولم يصلوا سن البلوغ.

والمساكين: وهم الفقراء فقرًا واضحًا بينا، لدرجة أنهم لا يملكون قوت يومهم.

والجار ذي ا لقربى: وهو الذي يتمتع بصلتين: القربى، والجوار معًا.

والجار الجنب: وهو الجار الذي يكون بجانب البيت، ولكنه لا يمت للفرد بأي صلة قرابة.

والصاحب بالجنب: وهو الصديق، أو الصاحب في السفر، أو في المهنة.

وابن السبيل: وهو الذي انقطع في الغربة عن أهله.

وما ملكت أيمانكم: من الإماء والعبيد.

ولقد تكفلت الشريعة الإسلامية بتفصيل هذه العلاقات والصلات، التي تجمع علاقة الإنسان وصلته بخالقه سبحانه وتعالى، وصلته بنفسه، وصلته بالمجتمع الذي يعيش فيه، فالصلة ماديًّا ومعنويا لمن له القدرة عليها أمر يحبذه العقل، ويحث عليه المنطق السليم، وإذا لم يتسير ذلك للجميع فالأولى بذلك الأرحام، والذين تجمعهم لحمة النسب.

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء:١).

ويقول سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٥).

مكانة صلة الرحم

صلة الرحم تعد من القيم التي لها شأنها عند الله تعالى، ولها مكانتها بين القيم السامية الرفيعة، ولعظيم شأنها، وجليل مكانتها، قال المولى سبحانه وتعالى في الحديث القدسي والذي رواه عبد الرحمن بن عوف –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: «أنا الله... وأنا الرحمن... خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»[١].

ففي هذا الحديث القدسي الشريف توجيه حكيم، يرشد المسلم إلى أهم شيء يجب أن يكون في حياته، وهو أن يصل رحمه، وهذا جانب من أهم جوانب البر والإحسان.

ولقد جاء هذا التوجيه بصورة حاسمة، لا تحتمل التهاون، والتكاسل في آية لحظة من اللحظات، فقد بين المولى سبحانه وتعالى أنه أخذ للرحم اسمًا من أسمائه، واشتقه من اسم «الرحمن»، فكان لها علاقة به، وليس المعنى أنها من ذات الله سبحانه جل شأنه عن ذلك علوًا كبيرًا.

إن الحق سبحانه وتعالى أوجد الرحم، وخلقها بقدرته الشاملة، فهي مضافة إليه وفي كنفه ورعايته، يتكفل بثواب واصلها، وعقاب قاطعها، ثم رتب على ذلك أن من وصل رحمه بالبر والإحسان، وصله الحق بالبر والإحسان في الدنيا والآخرة أيضًا، وأن من قطعها قطعه المولى سبحانه من رحمته وإحسانه، وأبعده عن جنته، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[٢].

وصلة الرحم واجبة، وقطعها من الذنوب الكبيرة، وقد ورد الوعيد بشأن قاطعها، فقد روى أبو هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عن النبي –ﷺ– أنه قال: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك... قالت: بلى... قال: فذاك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ»[٣].

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى قطعية الرحم مماثلة فاسد في الأرض، إذ إن في فساد الأسرة فساد المجتمع، وفي فساد المجتمع فساد للحياة، والأسرة المتمسكة بصلة رحمها فيما بينها تشملها البركة، وتعمها الرحمة، في حالها وفي مآلها، وتنعم بالسعادة والاطمئنان، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ (الرعد:٢١).

وأما الذين أقفرت قلوبهم من الإيمان، وخلت من خشية المولى سبحانه وتعالى، وتمزقت بينهم الصلات، وتشققت الأرحام، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل فأولئك هم الخاسرون، يقول تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (البقرة:٢٧).

أنواع الرحم

إن للرحم أنواعًا ثلاثة هي:

١- رحم عامة: وهي رحم الدين، وتجب مواصلتها بالمودة والمحبة، والتناصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما إلى غير ذلك من الحقوق الواجبة والمندوبة.

٢- رحم خاصة: وهم الأقارب، وهذه الرحم هي التي يعنيها الحديث القدسي الشريف، فتكون صلتها بزيادة النفقة على الأقارب، وتفقد أحوالهم، والتسامع معهم، وقضاء حوائجهم، وكل ما يعود عليهم بالنفع في حياتهم.

٣- رحم القريب غير المسلم: أجاز الإسلام صلة رحم القريب غير المسلم، عن طريق صلته بالبر والإحسان إليه، وذلك للرحم التي يرتبط بها الإنسان معه، يقول عمرو ابن العاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن آل أبي ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله، وصالح المؤمنين»(٤).

ويقول المولى سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

ويروى في سبب نزول هذه الآية القرآنية الكريم، أن الزبير بن العوام -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر وبهدايا: ضباب(٥)، وقرط، وسمن... وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها... فسألت السيدة عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله تعالى: (لا ينهاكم الله).

وجوه الصلة

إن لصلة الرحم وجوها كثيرة ومتعددة، فمنها ما يكون بإعطاء المال، ومنها ما يكون بقضاء الحاجات، وتفقد الأحوال، والصلة هذه ليست خاصة بمن يصلون بالمودة؛ بل إن المسلم مطالب أن يصل أرحامه جميعًا بلا استثناء، سواء أحسنوا إليه أم أساؤوا.

ولقد روى عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»(٦).

وعن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رجلًا قال: يا رسول الله.. إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليّ... فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل»(٧)، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك»(٨).

وإن لنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الأسوة، وأطيب القدوة، فقد لقي من أهله ما لقي، ومن عشيرته ما أقض مضجعه، وأقلق راحته، وأطلق لسانه الشريف بالضراعة إلى خالقه ومولاه سبحانه وتعالى مستجيرًا به من إيذاء «ثقيف» له، إذ يقول: «اللّهم إني أشكو أليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا

أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي.. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٩].

وعلى هذا فإن المعنى الشامل لوجوه الصلة، هو: إيصال كل ما يمكن من الخير، ودفع كل ما يمكن من الشر.

ويختلف ذلك باختلاف القدرة، ومدى الحاجة، فمنها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، فمن وصل بعض الصلة ولم يصل إلى غايتها فإنه لا يسمى قاطعًا، أما لو قصر فيما يقدر عليه فلا يسمى واصلاً.

ثمرات الصلة

إن لصلة الرحم ثمرات كثيرة ومتعددة، وردت في أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ومن هذه الثمرات ما روي عن أبي هريرة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وهما: زيادة الرزق، وزيادة العمر.

ولقد قال بعض العلماء إن ظاهر هذا الحديث النبوي الشريف، يتعارض مع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:٣٤).

وقد حاول بعض العلماء التوفيق بين هذا الحديث النبوي الشريف، وبين الآية القرآنية الكريمة، ولهم في ذلك أربعة أقوال: القول الأول: أن الزيادة كناية عن البركة في العمر، بسبب التوفيق في الطاعة، فيبقى بعد ذلك الذكر الطيب الجميل.

الثاني: أن هذه الزيادة في الحديث على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما ما دلت عليه الآية القرآنية الكريمة فبالنسبة إلى علم المولى سبحانه وتعالى، كأن يقال للملك مثلًا: إن عمر فلان مئة عام إن وصل رحمه، وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الحق سبحانه وتعالى أنه يصل رحمه أو يقطع، فالذي في علم المولى سبحانه لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقصان.

الثالث: أنه محمول على الذرية الصالحة، يدعون لأبيهم بعد موته.

الرابع: أن المراد بزيادة العمر هو نفي الآفات، عن صاحب البر، في: فهمه، وفي عقله؛ بل وفي كل شيء.

هذه هي الأقوال الأربعة، وإنه لمن الخير إبقاء الأثر في الحديث على المعنى الذي يتبادر منه عند النطق به، وهو عبارة عما بقي من رسم الشيء، وهذا يؤيد اللغة، ولا يوجد أشكالًا ولا تناقضًا يحتاج إلى تأويل في النصوص دون حاجة.

وعلى هذا يكون المراد بالأثر الوارد في الحديث هو أثر ما يعمله الفرد صلة للرحم، من المعونة لهم بالمال عند حاجتهم إليه، وفك ضائقتهم به، إن كانوا فقراء، وبالهدايا والزيارات والمجاملات في المناسبات إن كانوا أغنياء، وما إلى غير ذلك كل ما يدخل السرور على الأرحام.

هذا العمل – بلا شك – سوف يدخل الفرحة على النفوس، وسوف يترك فيها أثرًا عميقًا، إذ إن

غرس الورد، وزرع المحبة، وتقوية العلائق، ودعم الروابط، وجمال الألفة، مما يخلد ذكر الفرد بين قرابته، مادام هذا الأثر قائما فيهم، فكأنهم حتى بينهم، يقوم بما كان يقوم به حال حياته، ومن أجل هذا قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديثه الشريف: «وينسأ له في أثره»، ولم يقل: «في أجله»، ولو وردت رواية تقول: «وينسأ له في أجله» فإنه ينبغي أن يحمل الأجل فيها على الأثر، تلافيًا لهذا التناقض.

خلاصة القول

فضل المولى سبحانه وتعالى كثير ولا حرج عليه، ومادام سبحانه يفعل كل شيء، وبيده كل شيء، وجعل لصانع المعروف ثمرة، وللدعاء نتيجة، فلا مانع من أن يعطي لمن يصل رحمه مزيدًا من البركة ومزيدًا من الرزق، والفضل بيده سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء، وهو ذوالفضل العظيم.

ومن الأحاديث التي وردت فيما يترتب على صلة الأرحام من خير عظيم، وفضل عميم، قوله صلوات الله وسلامه عليه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(١١).

وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «من سره أن يمد له في عمره، ويوسع له في رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليتق الله وليصل رحمه»(١٢).

وقوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك»(١٣).

هذا هو حق الرحم في الإسلام، وهذه هي مكانتها، عناية زائدة، ورعاية فائقة، وتقدير ما بعده تقدير، وخير ومثوبة لا يعلم مداها أحد، ولا يدرك كنهها أحد، فعلينا أن نعمل بحقها، وأن نسير في طريقها حتى نكون من الفائزين برضا الحق سبحانه وتعالى، فكما ندين ندان، وما نفعله ستعاملنا به أرحامنا، في المستقبل العاجل والآجل.

* * *

الهوامش:

(١) رواه أبوداود، والترمذي، من رواية أبي سلمة عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أي: قاطع رحم، رواه مسلم، والبخاري.

(٣) رواه البخاري: ومسلم.

(٤) وزاد عنبسة بن عبد الواحد، عن بيان بن قيس، عن عمرو بن العاص – رضي الله تعالى عنهم أجمعين – قال: سمعت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «ولكن لهم رحم أبلها ببلالها»، يعني: أصلها بصلتها، رواه البخاري.

(٥) الضباب: نوع من الحلوى.

(٦) رواه البخاري واللفظ له، وأبو داود، والترمذي.

(٧) الملل: الرماد الحار.

(٨) رواه مسلم.

(٩) رواه البخاري.

(١٠) رواه البخاري، والترمذي، ولفظه: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثرة»، وقال: حديث غريب.. ورواه الطبراني من حديث العلاء بن خارجة كلفظ الترمذي، بإسناد لا بأس به.

(١١) رواه البخاري، ومسلم.

(١٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده، والبزار بإسناد جيد، والحاكم.

(١٣) رواه الطبراني من طريق زبان بن فائد.

من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١١٥)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

١٢٦- الشيخ مسيح الله خان رحمه الله:

ينتمـي إلى عائلـة الـشيرواني الـشهيرة في «عليكره». ولد عام ١٣٣٠هـ في وطنه «سرائ برله» من أعمال «عليكره». تلقى دراسته أولا في مدرسة حكومية إلى الصف السادس، وحرص منذ صباه على الذكر والتطوع والأوراد ودراسة الدين. فضاق ذرعًا من المدرسة الحكومية، وتخلى عن الدراسة، واضطر والده إلى أن يسمح له بتلقي الدراسة الدينية، فقرأ إلى مشكاة المصابيح في بلده، والتحق عام ١٣٤٨هـ بدارالعلوم/ديوبند، وأكمل دورة الحديث الشريف في عام ١٣٤٩هـ، ثم قرأ كتب المعقولات والأمور العامة، و«قاضي مبارك»، و«التصريح»، و«شرح الجغميني»، و«سبع شداد» ونحوها عامين.

بايع الشيخ أشرف علي التهانوي في أيام تحصيله الدراسي، ثم نال الخلافة سريعًا في عام ١٣٥١هـ. وسجل الشيخ التهانوي مرة أسماء أحد عشر من خاصة خلفائه في إعلان جاء فيه:

«أسجل أسماء بعض الذين أجزتهم ممن أثق بأسلوب تعليمهم، فتلقوا التربية على واحد منهم من شئتم».

وكان اسم الشيخ مسيح الله من بين الأحد عشر الخاصة.

وولاه الشيخ أشرف علي التهانوي عام ١٣٥٧هـ التدريس في بعض مدارس «جلال آباد»، وأرسله إليها. وكانت المدرسة حينئذ عبارة عن كُتاب محض. ثم لم يمض على ذلك إلا بعض الأعوام حتى اشتهرت هذه المدرسة بمفتاح العلوم لما بذله الشيخ فيها من الجهود وسقاها بدماء فؤاده. وقد أقيم المبنى الشامخ للمدرسة والمسجد العظيم فيها بمساعٍ مضنية من الشيخ رحمه الله، ودائرة المدرسة واسعة جدا ومسجده رائع.

ويعقد بعد صلاة الجمعة من يوم الجمعة

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

مجلسا، يتجمع فيه عدد كبير من أساتذة المدرسة وطلابها علاوة على أصحابه القادمين من الضواحي. ويتلو فيه الشيخ مواعظ وملفوظات الشيخ أشرف علي التهانوي. وامتد نطاق أصحابه ومريديه كثيرا. وله ملكة خاصة في شرح أصعب المسائل والمباحث في أسلوب سهل بالأمثلة والحكايات والقصص.

له في فن التصوف «شريعت وتصوف»، مستقى من كتب الشيخ التهانوي في التصوف، يقوم الشيخ فيه بشرح مسائل التصوف ومحتوياته في ضوء الكتاب والسنة بأسلوب أسهل، يستسيغه حتى العامي. وفيوضه عامة، وتجاوزت الهند.

١٢٧- الشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله:

ينتمي إلى أسرة علمية وعائلة الأشراف في مديرية «لاهور»، وكان والده الشيخ محمد زكريا شخصية سامية المنزلة معروفة، ولم تبق في ولاية «سرحد» أسرة تحظى بالاحترام غير عائلته. ولم يلتحق الشيخ البنوري بدارالعلوم/ ديوبند بصورة رسمية، إلا أنه ظل على صلة دراسية مع أساتذة دارالعلوم/ديوبند. فأسند الحديث عن العلامة أنور الشاه الكشميري في الجامعة الإسلامية /دابيل. فظلت حياته العلمية والتعليمية منوطة بدارالعلوم/ديوبند. وكان ذكيا فطنًا متواضعًا واسع النظر في العلم، وأمينًا على علوم العلامة الكشميري رحمه الله. له كتاب قيم في علم الحديث يسمى «معارف السنن»، ضبط فيه بكل ثقة وإتقان علوم العلامة الكشميري.

واشتغل في تدريس الحديث الشريف في الجامعة الإسلامية/دابيل وفي المدارس المركزية في باكستان. ولقي القبول والشعبية علاوة على باكستان في البلاد الإسلامية لما كان يتمتع به من القدرات العلمية غير العادية. ويتواصل مع مؤتمر العالم الإسلامي/ القاهرة، ومع رابطة العالم الإسلامي/ مكة المكرمة. ولي مشيخة الحديث في المدرسة الشهيرة في «تندو الله يار» في السند مدة من الزمان. ثم أنشأ في مسجد «نيوتاون» بكراتشي مدرسة، وبدأ التدريس في المسجد توكلا على الله تعالى. فتقبل الله تعالى صدقه وإخلاصه، فأصبحت هذه المدرسة من دور العلوم الأساسية في باكستان. وكان على منتهى الحذر والحيطة في نفقات المدرسة، ومواظبًا على الزهد والتقوى.

وهو من الكُتاب أيضًا، ولغته الأردية سلسة وأدبية، وأنشأ في مدرسته مجلة سماها «بينات»، تنشر فيها مقالات الكتاب البارزين العلمية. وله مساهمة لابأس بها في اعتبار القاديانية أقلية غير مسلمة. وكان حسن الوجه جميلا، وكان يقدر على الأدب العربي قدرة صاحب اللسان عليه. واعترف بفضله وعلمه علماء مصر والبلاد العربية. وبعد أن سجلت هذه السطور جاءه أجله صباح يوم ١٧/أكتوبر

عـام ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ في إسـلام آبـاد. إنـا لله وإنـا إليه راجعون.

١٢٨- الشيخ منت الله الرحماني رحمه الله:

ولـد في ٩/جمـادى الآخـرة عـام ١٣٣٢هـ في الزاوية الرحمانية/مونغير. وكان والده الشيخ السيد محمد علي[١] (المتوفى ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) من عباقرة عصره، ومن جلة خلفاء الشاه فضل رحمان الكنج مراد آبادي (المتوفى ١٣١٣هـ)[٢]. قرأ القرآن الكريم وتلقى مبادئ الفارسية والعربية في بلده. ثم تحول وهو ابن ١١عامًا إلى حيدر آباد/دكن. ومكث بها عامًا واحدًا، وقرأ على المفتي عبد اللطيف (المتوفى ١٣٧٩هـ/١٩٢٧م) العربية من النحو والصرف، وكتب المنطق. ثم التحق بدارالعلوم ندوة العلماء/لكناؤ، وأمضى بها أربع سنوات وتلقى العلم بها. وقرأ خلال ذلك «حجة الله البالغة» على العالم البارز الشيخ حفيظ الله (المتوفى ١٣٦٢هـ). وكان الشيخ الرحماني يعد من الطلاب البارزين في ندوة العلماء، والتحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٩هـ لإكمال دراسته، وتخرج منها عام ١٣٥٢هـ، وكان من خاصة تلامذة الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله، وكان له إلمام بقدر الحاجة باللغة الإنجليزية، و له حظ وافر من الخطابة والكتابة. وله عدد من المؤلفات. وأسلوب كتابته سهل بسيط، وفي متناول فهم العامة، وخلاب. وكان متمكنا من اللغة والبيان كل التمكن.

واختير عضوًا في المجلس التشريعي المحلي في ولاية «بيهار» عام ١٣٥٥هـ، وتولى سدانة الزاوية الرحمانية عام ١٣٦١هـ، وكان والده جعل الزاوية الرحمانية مركزا علميًّا ودينيًّا ودعويًّا شامخا في شرق الهند. وبعد أن ولي سدانة الزاوية أقبل على إصلاح خلق الله تعالى كثيرا. وامتد نطاق مريديه وأصحابه في ولايات: «بيهار»، و«أريسه»، و«بنغال». واختير عضوًا في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٧٤هـ، وكانت إصابة رأيه تحتل مكانة سامية في المجلس. واختير أميرًا شرعيًّا للإمارة الشرعية بولاية «بيهار» و«أريسه». وواصل التدريس بجانب الإفادة الباطنية، فكان يشكل مجمعًا للشريعة والتصوف حسنًا رائعًا.

ويعد إنشاء الجامعة الرحمانية من جديد، ورقيها غير العادي من أعمال الشيخ العبقرية العلمية والإدارية. وتعد الجامعة الرحمانية في هذه الأيام من كبار المدارس الدينية في ولاية «بيهار». وشهدت المكتبة في تلك الأيام رقيًّا وازدهارًا كبيرين. وتحتضن رصيدًا كبيرًا من صفوة الكتب الجديدة والقديمة.

وشهدت الإمارة الشرعية رقيًّا كبيرًا على عهد الشيخ الرحماني، وانتشرت فروعها هنا وهنا في كل من «بيهار»، و«أريسه». وتقوم هذه المؤسسة بإقامة القوانين الشرعية في نطاقها.

وشارك الشيخ الرحماني عام ١٣٨٣هـ/

١٩٦٤م في مؤتمر العالم الإسلامي/القاهرة في مصر ممثلا للهند. وكتاب «الرحلة» ذكرى تاريخية لهذه الرحلة العلمية والثقافية. وأسدى خدمات جليلة تجاه القوانين العائلية للمسلمين بصفته أمينا عامًّا لهيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند. وأبرز أعماله أن الشيخ الرحماني يحظى بثقة المذاهب الإسلامية المختلفة التي جمعها حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب رحمه الله – رئيس هيئة الأحوال الشخصية- على رصيف واحد.

١٢٩- الشيخ شريف حسن الديوبندي رحمه الله:

من سكان ديوبند، ولد فيها في ٩/أغسطس عام ١٩٢٠م، وبها حفظ القرآن على الحافظ عبد الخالق الراحل. ثم أمضى ثلاث سنوات في قراءة الفارسية ومبادئ كتب العربية في بعض المدارس في «بيهت» من أعمال «سهارنفور». ثم التحق بدارالعلوم/ديوبند، وأكمل المنهج الدراسي النظامي، وتخرج من دورة الحديث الشريف عام ١٣٥٨هـ.

ثم ولي رئاسة التدريس في مدرسة إمداد العلوم بالزاوية الإمدادية في «تهانه بهون» اعتبارًا من شوال عام ١٣٦٠هـ/١٩٤١م. وكانت له مكنة في جميع العلوم والفنون. ونشأت فيه رغبة خاصة في الحديث والإفتاء ببركة مصاحبة حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي. وولي رئاسة مدرسة إشاعة العلوم/بريلي في نحو عام ١٣٦٤هـ. فكان يجمع بين تدريس الحديث ومسؤولية الإفتاء. ثم ولي مشيخة الحديث في الجامعة الإسلامية/دابيل من أعمال «سورت» بعد ذلك بتسع سنوات، وقام بتدريس صحيح البخاري وجامع الترمذي بها.

واستدعي إلى دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٨٣هـ، وكان له شغف كبير بعلم الحديث. ومن أبرز أعماله توليه مسؤولية تدريس صحيح البخاري بعد الشيخ فخر الدين أحمد رحمه الله، وظل على مشيخة الحديث حتى آخر لحظة من حياته. وقضى حياته كلها في الإفادة والتدريس و في خدمة طلاب العلوم الدينية. وكانت دروسه عامرة بالمواد العلمية. ويقوم طلاب الحديث الشريف مطمئني البال من دروسه. واستمرت فيوضه حتى قبل الوفاة بساعات.

ويعتبر الشيخ شريف حسن من ذكريات العلماء في العلم والعمل و التقوى والطهر وفضائل الأخلاق والشمائل. وبزَّ علماءه المعاصرين بتبحره في العلم، وشغفه الخاص بعلم الحديث، وصفاء نفسه. ويلقى كل صغير وكبير بوجه طلق، هشًّا بشًّا. فكان نقي الظاهر والباطن. وكان على منتهى الظرافة.

وأصيب بنوبة قلبية في الليلة المتخللة بين ١٤، و١٥ جمادى الآخرة عام ١٣٩٧هـ، وتوفي بعد مرض لم يدم إلا ساعات عن عمر بلغ (٥٩) عامًا. رحمه الله رحمة واسعة. واستراح للأبد في المقبرة القاسمية.

١٣٠- الشيخ أشرف علي الكمرلائي رحمه الله:

من سكان مدينة «كمرلا» في بنغلاديش، تخرج من دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٦٤هـ، وقام بخدمات جليلة بالخطابة والموعظة والتلقين والإصلاح الديني والاجتماعي والتأليف والتصنيف علاوة على التدريس والإفادة. وولي رئاسة التدريس في كل من مدرسة «لاوري»، ودارالعلوم/جسر لاكه فور، والمدرسة القديمة، والمدسة العالية/هيبت نغر. واتفق له تدريس نحو جميع كتب المنهج الدراسي النظامي. واستفاد مئات الطلاب في «بنغال» في دينهم وعلمهم. وكان يقوم بكتابة الفتوى في منطقته. وأبدى قدراته غير العادية في ميدان المناظرة، ونوه بها أهل العلم.

وكان خطيبا فصيح اللسان ومتحمسا في اللغة البنغالية، كما كان كاتبًا ومترجمًا ومؤلفًا ناجحًا. وقبل مدة طويلة بدأ ترجمة شمائل الترمذي وصحيح البخاري إلى اللغة البنغالية. وليت شعري هل اكتملت هذه التراجم أم لا؟ وكان بايع حكيمَ الإسلام الشيخ محمد طيب. وكان عالما عاملا بعلمه.

ويتولى نظارة حزب النظام الإسلامي، ويسعى لإقامة حكومة النظام الإسلامي في بلاده دائمًا.

١٣١- الشيخ المفتي محمود رحمه الله:

من سكان «كلاتشي» في «دير إسماعيل خان»، ولد نحو عام ١٣٤٢هـ، بدأ دراسته في بلده وفي بلوشستان، والتحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٦٤هـ، وتخرج منها عام ١٣٦٥هـ. وقام بالتدريس في مدرسة نجم الإسلام/كلاتشي وغيرها خمس أو ست سنوات. وأنشأ في «كوت أعظم» مدرسة للقرآن الكريم واللغة الأردية.

وكان له بصر كبير بالحديث والفقه، وينظر إلى فتاواه في باكستان نظرة ملؤها الثقة والاعتبار. ويعد من علماء باكستان البارزين. وبجانب البصر بعلوم الدين كان له نظرة واسعة في العلوم العصرية. وكان جريئًا على قول الحق، وشجاعًا. ويلي نظارة جمعية علماء الإسلام في باكستان. وسبق أن اختير عضوًا في المجلس الباكستاني، كما شغل منصب كبير الوزراء في ولاية «سرحد» بعض المدة. وقام بمحو كثير من المنكرات الشرعية في عهده. وقام بتمثيل باكستان في مؤتمر العالم الإسلامي/مصر.

وتستمر خدماته العلمية والسياسية حتى اليوم، وتحتل مساعيه في اعتبار القاديانية أقلية غير مسلمة أهميةً بالغةً. ويتولى اليوم رئاسة جبهة الوحدة الباكستانية. وله منزلة بارزة في السياسة الباكستانية.

* * *

الهوامش:

(١) راجع كتاب «سيرة سيد مولانا محمد علي» لترجمته.

(٢) للاستزادة راجع: تذكره مولانا فضل رحمن، تأليف: الشيخ السيد أبو الحسن علي الندوي.

* * *

أثر الحضارة الغربية في حياتنا

بقلم: الدكتور/ عبد العزيز الخياط

ماذا نعني بالحضارة؟

سؤال يتردد في الأذهان، وينطلق به كل لسان، وقد تخبط في معناها كثيرون، وفسروها تفسيرات شتى.

وتبعًا لذلك وقف الناس منها موقفًا عجيبًا متناقضا، فمنهم من جعل الحضارة هي المدنية ومنهم من جعلها الأفكار وحدها، ومنهم من جعلها العلم وما ينتج عنه من مخترعات، ومنهم من جعلها كلمة شاملة للمدنية والأفكار والعلم والقيم والأخلاق والصناعة..

فغوستاف لوبون جعل الحضارة بالمعنى الواسع الأخير، ولذلك اشتمل كتابه (حضارة العرب) على كل ما كان للعرب من مفاهيم عن الحياة، وما كان لهم من نظرات فيها قبل الإسلام وبعد الإسلام، كما اشتمل على توضيح لأبعاد الرسالة الإسلامية ومفاهيمها ومدى ما أثرته في العرب وكيف دفعتهم للفتح ونشر رسالتهم، ومدى تقدمهم في شتى مجالات الحياة وعلومها في الاجتماع والسياسة والعادات والأعراف واللغة والجغرافية والفلك والطب والكيمياء والمخترعات والفنون، ومدى تأثيرهم في أوربا والشرق بما حملوا من هذه الحضارة إليهم.

غير أن أ. أرنولد، المستشرق الإنجليزي يرى تخصيص الحضارة بمعنى أضيق فهو يقصرها على وجهة نظر الإنسان في الحياة، وهذا تعريف أكثر تحديدا لمدلول لفظ الحضارة، وأكثر إعانة على تعرف أبعادها...

ولذلك أرى أن نحدد معنى الحضارة بأنها طريقة الإنسان في الحياة، أو مجموعة أفكاره عنها، وأعني بالحياة الأعمال اليومية التي يمارسها المرء في معيشته، ففكرته عنها، ونظرته إليها يكيف سلوكه فيها، ويحدد طريقة تصرفه في أعماله، وهذه هي الحضارة.

وأما المدنية والعلم والثقافة فأمور أخرى غير الحضارة، فالعلم هو المعرفة التي تؤخذ بالملاحظة والتجربة والاستنباط والاستقراء، كالتوصل إلى أن أهم عناصر الذرة ثلاثة. الألكترون والنيوترون والبروتون أي السيار والحركة والنوية، فهذه معرفة أخذت بالتجربة والملاحظة والاستنباط والاستقراء، والثقافة هي المعرفة عامة، وتشمل

جميع المعارف النظرية وقد تكون خاصة إذا لونتها أمة من الأمم بوجهة نظرها في الحياة، فتصبح حينئذ ثقافة إسلامية أو غربية أو شيوعية أو غير ذلك.

والمدنية هي الأشكال المادية التي تنشأ عن الحضارة أو عن العلم، فبناء المعابد على كيفية معينة ينشأ عن حضارة، فالمسلم يبني للمسجد منارة ويجعل اتجاهه إلى الكعبة، والنصراني يبني للكنيسة برجا للأجراس ويجعل لها هيكلا، والبوذي يجعل في معبده صنما وساحة للرقص وهكذا، واختراع الطائرة صناعة نشأت عن علم، وعمل قطع الموبيليا صناعة نشأت عن علم، وصناعات الألبان أساسها العلم، فهذه كلها مدنية ناشئة عن حضارة أو عن علم.

وعلى هذا نجد أن هناك اختلافًا بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية في أساس كل منها ونظرتها للحياة، وتكييفها سلوك الإنسان.

فاالحضارة الغربية تقوم على أساس إنكار الإيمان بالله أصلا كما هو في الشيوعية أو على أساس فصل الدين عن الحياة كما هو في النظام الرأسمالي، ولذلك نجدهم يفصلون بين أعمالهم اليومية ومسلكهم فيها وبين معتقداتهم. فالدين عندهم صلة بين الإنسان وربه تظهر عندما يتقرب إلى الله بالصلاة في معبده، وعاطفة تظهر عندما تثار، ولكنها لا تكيف حياتهم ولا توجه سلوكهم... ومن هنا كانت الحياة في الغرب ملونة بالمادية والنفعية، وكانت حضارتهم قائمة على أساس من هذه المادية، وتكييف حياتهم تبعا لذلك بالمنفعة والاقتصاد، لا يقيمون علاقات بين الأفراد والدول إلا على أساسها ولا يفكرون في أمر من الأمور إلا من خلالها وما أجمل ما يصور هذه الناحية قول الكاتب سامول بتلر في كتابه (Ghide to modern wickeness) (نحن مشغوفون بحب المال، وعقيدتنا أن الثورة هي المقياس الصحيح لعظمة الفرد). والحكومة كانت سببًا لظهور مبدأين لهما الأهمية التاريخية الكبرى.

أحدهما: مبدأ عدم التدخل الاقتصادي الذي كان سائدا على القرن التاسع عشر ويدعي أصحاب هذا المبدأ أن الإنسان يبني عمله على أعظم نفع يجلبه، وأن ليس الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية بل الالتذاذ بالثروة.

والمبدأ الثاني الذي يسود القرن العشرين هو مبدأ التنظيم الاقتصادي المنسوب إلى ماركس، ويقوم هذا المبدأ على أن نظام الإنسان الاقتصادي إنما يتأسس على حوائج الإنسان المالية، وهذا النظام هو الذي يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة، ولم يكن هذان المبدآن لينالا القبول الذي ناله لولا شغف الناس في بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به... إن نظرية الحياة التي تسود هذا العصر وتتحكم فيه هي النظرية الاقتصادية في كل شيء. (View of Life stomach and poket) وكم هو جميل أن نورد كلمة الصحفي الأمريكي

(John Gunther) وقد زار أوربا وكتب كتابه داخل أوربا (Inside Europe) حين صور حياة الإنجليز بقوله: (إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة) وتلك هي حضارة الغرب قاطبة وهي التي توجه عندهم العلم والمدنية والصناعة والأخلاق والقيم والآداب والمعاملات، وتحدد لهم سلوكهم في كافة شؤون الحياة، ولذلك كان من مظاهر حياتهم الاندفاع في الملذات وتطلب المزيد منها، والاستعمار وهو استغلال الشعوب على تلون أشكاله، واختلاف أساليبه وكان من أهم مظاهر حياتهم – طبقا لهذه الحضارة – أن جعلوا العالم على فوهة بركان مقلقل الأعصاب، متوتر النفسية، مرتكزا على كبسولة القنبلة الذرية، وواضعا يده على مفتاح الصواريخ...

وهذه الحضارة... هي التي دخلت بلادنا باسم من التقنية (تكنولوجيا) تحمل معها مفاهيمها عن الحياة، وعلمها وصناعتها، وقيمها، وعاداتها، وأفكارها...

ووقفنا نحن نتطلع إليها مذهولين مدهوشين أولا.

ووقفنا بعد ذلك موقفين متناقضين (الأول) موقف المندفع المقلد الذي يأخذ بالآراء الغربية الفجة والغثة والسمينة والصحيحة، والزائفة، ويرى أن سبب تخلفه علميا واقتصاديا وسياسا وفكريا هو تمسكه بحضارته أي بطريقته في الحياة والتي تقوم على أساس من العقيدة الصحيحة من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والتي تكيف حياته، وتحدد مسلكه، وتعيد له وجهة نظرته في أعماله، وتبين له الحلال والحرام.

(والثاني) موقف الجامد المتزمت الذي يرى في كل ما جاء من الغرب إثما وفجورا، والذي لم يفرق بين الحضارة والعلم والمدنية والثقافة، والذي رأى أن العلم والصناعة لا تؤخذ كما لا تؤخذ الحضارة، فحارب الاتباع، وحرم العلم...

وبين هذين الموقفين المتناقضين كاد العرب والمسلمون ينسحقون أمام التقنية الغربية تغزو بلادهم وديارهم وتكيف سلوكهم وحياتهم، وتوجه علمهم وثقافتهم، وتسيطر على مناهج التربية والتعليم عندهم، وتتخذ من وسائل العلم الحديثة مدخلا طيبا للسيطرة علينا في كل منحى من مناحي الحياة، وربطنا بعجلة سياستهم، فإذا بنا بعد فترة وجيزة من عمر الزمن في مجتمع متناقض غريب، لا تسيطر عليه حضارة الغرب والإسلام، ولا تسيطر عليه أفكارها، وفي نفس الوقت لا تسيطر عليه حضارة الغرب كليا، إنما نجد عندنا إيمانا بديننا وتمسكا بكثير من مظاهره وببعض تعاليمه في الزواج والطلاق والمعاملات والميراث، ونبذا لحضارتنا الأصلية في كثير من القوانين والعادات والتقاليد وأصبحنا نرى في مجتمعنا أفكار

الغرب وآراءه، يتحمس لها منا متحمسون، فكلما ظهر في الغرب مفكر أيا كان لونه واتجاهه، وكلما دعا غربي أو شرقي إلى أمر من الأمور، وجد له أتباع عندنا يتشدقون بما يقول، ويروجون لما يدعو له. حتى في الأزياء والملابس وطريقة قص الشعر ولوك الكلمات.... حتى في الخنفسة والسادومية والوجودية .... وحياة الكهوف...

ذلك لأننا لم نستطع التمييز بين قيم وقيم، ولم نستطع التفريق بين حضارة وحضارة ولم ندرك أن لنا مميزاتنا وخصائصنا في حضارتنا ومفاهيمنا وأفكارنا، وأن علينا أن نتمسك بها، وأن نكيف بها سلوكنا، وأن نأخذ ونحن مسلمون بوجهة نظرنا الأصلية عن الحياة... أن نأخذ بعلم الغرب وصناعته وأن نبرع فيهما كما برع، وأن نبدع فيهما كما أبدع، وأن نوفق بين هذا التقدم السريع في العلم والمخترعات والأسلحة والصناعة وبين القواعد الأصلية والخطوط العريضة لنظرتنا الإسلامية عن الحياة، فنحل المشاكل الحديثة التي خلقتها التقنية الحديثة على ضوء مما نؤمن مسايرين لهذا النمو العلمي والتقدم الصناعي السريعين.

حدثني صديق جاء من الصين أنه لم يشاهد فيها فيلمًا سينمائيا أو مسرحية تتناقض مع أفكار الصينيين الجديدة عن الحياة، على الرغم من حداثة سيطرة المبدأ الشيوعي على حياتهم، وسعة الرقعة الصينية وكثرة سكانها... بينما نندفع نحن في تصديق الضلالات التي يبثها أناس متعمدون من الغرب عنا ونترك أقوال منصفيهم في حضارتنا وتقاليدنا... فمثلا يقول مورو بيرجر في كتابه (العالم العربي اليوم) في فصل عقده بعنوان (الشخصية والقيم) (وقد أدى توقير القرآن واللغة العربية التي نزل بها على المسلمين إلى تمسك البناء لم يستطع المجتمع أن يتخلص منه إلا حديثا، ففي نهاية القرن التاسع عشر بدأ صغار الشعراء العرب والكتاب والفنانون والدارسون يجربون ويتخذون لهم أشكالا وأفكارا جديدة تفتحوا عليها في أوروبا..).

أما أن يقول غوستاف لوبون (ألا نرى في التاريخ أمة ذات أثر بارز كالعرب) ويذهب إلى تعداد مظاهر هذا الأثر البارز في كتابه حضارة العرب فيجانب فريق منا هذه الحقيقة ويذهبون إلى المغالطات التي لا قيمة لها.

إن حضارة الغرب قد أثرت تأثيرا سيئا في أفكارنا وعاداتنا وتقاليدنا ولم نستطع أن نتمسك بحضارتنا، وبهرنا العلم والصناعة، فمن الواجب اليوم أن نميز ما يردنا من الغرب فنأخذ منه ما يرفعنا علما وصناعة، ونبعد منها ما يؤدي بنا إلى التردي في الخلق والفكر، ونظل متمسكين بتراثنا وحضارتنا الأصلية، ونعود إلى العمل بقوانين الإسلام وتشريعاته، ونعمل على أن نوجد الأحكام والحلول الشرعية لكل المسائل المستجدة والمشكلات التي تواجهنا.

البركة: مفاهيم وأسرار

بقلم: د/ علي مدني رضوان الخطيب (*)

لما كانت البركة تعني زيادة الخير ونماءه مع وفرة النعم وهناء العيش وكفايته صارت مطلبًا قديمًا منذ أن دبت قدم الإنسان على كوكب الأرض؛ بل شنّفت الآذان لسماع الدعاء بها من فم الجدات والأمهات للآبناء والأحفاد «الله يبارك لكم ويبارك فيكم، يبارك لكم في مالكم وعيالكم؛ بل حتى إذا ما زارهم عزيز لديهم تجدهم يبادرون في صوت واحد – زيادة في الترحيب وابتهاجًا باللقاء – حلّت البركات، زارتنا البركة، وكل ما يدركوه حينئذ أن في البركة سرًّا غالبا يحمل في طياته الخير والنفع... تأتي إحداهن إلي (جدتي) تحكي لها شظف العيش وضيق الحال وأن وظيفة زوجها بسيطة وراتبه يسير جدًا وإذا بجدتي أسمعها وأراها تعتدل من جلستها وتستدعي من مخزون التجارب ما يكفي لتأليف المجلدات وهي تقول لها بعفوية وتلقائية وهي تريد أن تهون قسوة الأيام عليها ولا تزيد عن قولها: يا بنتي اسمعيني (الكلام على البركة) أي إذا بارك الله تعالى لكم في القليل يصبح كثيرًا – كأن نفحة علوية وسرًّا غالبًا من فاطر السموات والأرض أصابه، فالله من أسمائه المعطي، الوهاب، الرزاق، الكريم، الباسط، الرازق، الولي، ليكون في البركة مددًا من أسمائه وصفاته سبحانه من (العطية و الهبة و الرزق و الكرم و البسط و المدد والتوفيق و الظفر).

فإذا بوركت الأعمار اندفعت المضرات وانتفع بالأوقات وذهبت الآفات وزالت العوائق وانكشفت العلائق التي تحجزك عن الركب وتقطعك عن السير.

حينها تتأمل فترى البركة تحيط بك، تقبل عليك، تشتد من بعيد فترى مرآة نفسك مستقرة، هادئة، موفقة فيها من الرضا والخير والستر والراحة ما لم تجده قبلها.

وأهل الفضل دائمًا يتلمسون مواطن البركة و أسبابها من مظانها لرغبتهم في بركة الأعمار والأعمال و السعي وهم يعتقدون جزمًا لا شك فيه أن انحسار البركة عن حياتهم غبن وتعثر، وضياع وشتات وألم وانحسار فلا يستقيم لهم عيش ولا يصفو لهم زمان إلا أن يثبت لهم هذا الخير الإلهي المتدفق بحلول هذه البركات في الأنفس والآفاق

(*) دكتوراه في الشريعة الإسلامية، جامعة طنطا.

فتتحول البيوت والدور التي نقطنها – وهي من حجارة وتراب – إلى ضياع و جنات، وساحات من الفضل وجامعات من الهدى، ومعينًا من البر، بل وظلالًا يستريح إليها أولئك المتعبون من وعثاء السفر حيث صار الأمر كله لله يفعل ما يريد ويحكم ما يريد بيده الخزائن مملؤة لا تنفد لا يعجزه شيء ولا ينقص من ملكه شيء فيقع التحول بنا سريعًا من وإلي، كنا و أصبحنا فتقبل الدنيا بعافية جديدة. ويطل الزمان ويتسع المكان فإذا بالحمام وقد باض على الوتد وتحول الطين طيبًا والتراب تبرا والزمان بهجة وسرورًا.

مفهوم البركة: ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته أن البركة تعني ثبوت الخير الإلهي في الشيء[1] وكل بركة تعني الثبات والاستقرار وتطلق على كل نعمة وموهبة تبقى ولا تزول.

وقال صاحب مختار الصحاح: إن البركة هي كل شيء ثبت وأقام فقد برك، وسميت بركة الماء لكثرة بقاء الماء فيها[2].

ويؤكد هذا القول ابن الأثير بعدما شرح حديث الصلاة الإبراهيمية «اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد» أي اثبت له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة[3].

يقول ابن القيم تعليقًا على هذا الدعاء: فهذا الدعاء يتضمن إعطاءه من الخير ما أعطاه لآل إبراهيم وإدامته وثبوته له ومضاعفته له وزيادته[4].

كأن معنى البركة لدى ابن القيم الثبوت واللزوم واستقرار النعمة من قولهم برك البعير أي استقر على الأرض ومنه مبرك الإبل لموضع البروك. وبالتأمل لما سبق يتبين لنا أن معنى البركة لا يخرج عن (النماء و الزيادة والخير و الديمومة).

ونود التأكيد على أن البركة هي هبة ومنة وعطية وتوفيق من الله تعالى لعبده، فإذا ساق الله تعالى لعبده الخير صبّه عليه وساقه إليه وفتح المغاليق له وأضاء دربه وأشعل قناديله وأحاطه بالمدد (مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[5] قال صاحب التحرير: إن رحمة الله من النفائس التي تشبه المدخرات المتنافس فيها فكانت حالة إعطاء الله الرحمة شبيهة بحالة فتح الخزائن للعطاء ولا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرحمة وغيره من تصرفات؛ لأن الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه فإن نقض ما أُبرم ضرب من الهوان والمذلة[6].

ومن ثم فقد جعل الله هذه الرحمة من جملة ما امتن به سبحانه على أنبيائه ورسله وأوليائه حيث قالت زوجة الخليل إبراهيم بعدما بُشرت بالولد – وهي عجوز مسنة – (يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ)[7].

قال ابن عاشور في هذه الآية «لا عجب من أمر الله؛ لأن إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة فلا عجب في تعلق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة»[٨].

ويقول ابن القيم: وهذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته وكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم[٩] البركة التي يدعو بها الصالحون لمن يحبون، وتدعو بها الأمهات والجدات للأبناء والأحفاد بمثل (ربنا يبارك فيكم ويعوض عليكم) (ربنا يبارك لكم في مالكم وعيالكم وكل شيء تمتلكوه) (ربنا يطرح فيهم البركة) وحتى عندما نبيع شيئًا ما نقول للمشتري: ربنا يطرح لك بركة، ومن يقدمون المعروف لنا ندعو لهم ونشكرهم بقولنا «بارك الله فيكم» من كل ما سبق دعوة بالبركة والتي هي سر إلهي مختوم بخاتم الغيب يحمل الخير و الستر والرضا والزيادة والنماء والثبات والاستقرار حتى تتألق النفس مزهوة بعطاء الكريم الذي خصها دون كثير ممن حولها فهم يفقدون ما نجد، وقد يجدون ما نفقد لكن تبقى البركة كنز الكنوز ومستودع الأسرار وعطية الملك التي لا يحظى بها إلا من رضي عنهم سيدهم ومولاهم (وما كان عطاء ربك محظورا)[١٠].

البركة يا سادة هي تيسير للعسير وتسلية للمحزون وأمان للخائف ورقية للأحزان وترياق للمرضى، وراحة للمكدود وتقريب للبعيد وكفاية في المال، وغمر من السعادة، وشبع في الطعام وريٌّ في الشراب، وسعة في المكان، وبهجة في القلب، وضياء في العين وخفة في الجوارح وإبداع في العقل، وفهم للمقاصد واستراحة للضمير. البركة يا سادة إذا حلت في الشيء جعلت القليل كثيرًا وحولت الخوف أمنا.

(وإذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان)

وحوَّلت القلق إلى سكينة والتعب إلى راحة، وحولت الضعف قوة، والله تعالى يرزق العبد البركة بأسبابها وبغير أسبابها وكم من زوجين صالحين لم يكرمهما الله سوى ولد واحد أو بنت واحدة؛ لكنهما ملآ الدنيا خيرًا ونورا وعزًّا وهداية، لقد انتفع الناس ببركة علم الشافعي وأحمد ومالك وأبي حنيفة وسفيان والثوري والأوزاعي والليث والنووي وابن حجر و الشوكاني والغزالي وابن القيم وغيرهم فتح الله بعلمهم المغاليق وكشف به الأسرار وأنار به الدرب وحل به المعضلات، وهذا هو المعنى من قول عيسى عليه السلام (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)[١١]. لمجاهد روايتان في هذا المعنى، الأولى: واجعلني معلمًا للخير والثانية نفاعًا أينما اتجهت. وقال السعدي هنا: البركة جعلها الله في تعليم الخير

والدعوة إليه والنهي عن الشر[١٢] يقول الشيخ محمد الغزالي «البركة هي رعاية السماء لعملك فلا يخطئ هدفه ولا يفقد ثمرته، هي التوفيق لاستغلال الشيء على أحسن وجوهه ووضع الأمور في مواضعها دون عناء أو عوج، هي الإفادة الكاملة من الوقت والمال فلا يضيع هذا في لغو ولا يضيع ذلك في باطل، البركة هي هداية الله للجهد الإنساني فلا يذهب فريسة خطأ ولا يفشل نتيجة غضب»[١٣]، ذكر البخاري أن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لولده عبد الله يا بني، إن عجزت عنه في شيء فاستعن عليه بمولاي فوالله ما وقعت في كربة من دين إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه»[١٤] ولذلك لما استدان الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دينا وصل إلى مليون ومئتي ألف ولم يكن له في ظاهر الحال مالا يسد هذا الدين إلا غابة اشتراها بمئة وسبعين ألفًا ثم باعها ابنه عبد الله بـ٥٠ مليون و مئتي ألف، وهذا من البركة الخفية التي لا يتوقعها صاحبها.

كأن تشتري قطعة أرض في وقت ما لم تكن لها قيمة بمبلغ يسير جدًا ثم يقام بجانبها فيما بعد جامعة علمية فيرتفع ثمن الأرض التي اشتريتها إلى خمسين ضعفًا من ثمنها أليس هذا من البركة الخفية التي ساقها الله تعالى إليك.

وفي الصحيح من حديث عروة البارقي رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه دينارًا يشتري له به شاة فاشترى له به شاتين فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة فدعا له بالبركة في بيعه فكان لو اشترى التراب لربح فيه».

وفي رواية الترمذي قال له النبي ﷺ: بارك الله لك في صفقة يمينك، فكان يخرج بعد ذلك إلى كناسة الكوفة فيربح الربح العظيم فكان من أكثر أهل الكوفة مالًا[١٥]. وفي رواية فقد رأيتني أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفًا قبل أن أصل إلى أهلي.

* * *

إحالة:

(١) الراغب الأصفهاني – مفردات غريب القرآن ص٥٦، ج١، مكتبة نزار مصطفى الباز.
(٢) الرازي – مختار الصحاح ص٢٠ – مكتبة لبنان – بيروت.
(٣) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث و الأثر ص٢٩١ – وزارة الأوقاف قطر.
(٤) ابن القيم – جلاء الأفهام ص٢٣٧.
(٥) سورة فاطر آية ٢.
(٦) الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير ٢٥٢/٢٢.
(٧) سورة هود – آية رقم ٧٣،٧٢.
(٨) الطاهر بن عاشور – المرجع السابق ١٢٢/١٢.
(٩) ابن القيم – المرجع السابق ص ٣٠٩.
(١٠) سورة الإسراء آية ٢٠.
(١١) سورة مريم آية رقم ٣١ .
(١٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبدالرحمن ناصر السعدي.
(١٣) مع الله – الشيخ محمد الغزالي.
(١٤) البخاري برقم ٣١٢٩.
(١٥) رواه النسائي، قال المنذري و النووي إسناده حسن صحيح.

* * *

أهداف مجتمع الإسلام

بقلم: الدكتور/ مصطفى عبد الواحد

لتجمع الناس بعضهم مع بعض مقاصد يحصل بعضها بالضرورة، ويتحقق باقيها بالإرادة والمعاناة..

فقد كانت نزعة التجمع الإنساني صادرة عن الشعور بالحاجة إلى تضافر الجهد على تحقيق المطالب الضرورية التي لا يقدر عليها الإنسان منفردا، من أمر معاشه وقوامه..

وهذا الضرب من الاجتماع - كما يقول ابن خلدون - «ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم[1]..

فهل للإسلام من هدف فريد حين يقيم مجتمعه وبيني صرحه على أساس من العقيدة ويشيد دعائمه على وحيها..؟

أو: ما الغايات الفذة التي يبتغيها الإسلام من تحقيق منهجه الاجتماعي وصبغ المجتمع بصبغته؟

* * *

يمكن القول: إن الإسلام في بنائه لمجتمعه يهدف إلى إقامة الحياة المتوازنة التي تتجلى فيها خصائص الفطرة وتتسق مع دور الإنسان في الحياة.

والأنظمة الاجتماعية تختلف باختلاف فلسفاتها وأسسها الفكرية، كما تختلف باختلاف أهدافها وغاياتها القريبة والبعيدة، والإسلام يقيم مجتمعه على أساس نظرته إلى الإنسان وإدراكه لرسالته وخصائصه.

إنه يرى في الإنسان كائنا متميزا، يجمع إلى طاقاته المادية التي تقتضي الالتفات إليها وإجابة ندائها، طاقات روحية تدفعه إلى غايات سامية ذات صدى بعيد في كيانه.

إنه ليس حيوانا يصغي إلى صوت غرائزه فحسب، عاكفا على إشباع رغائبها وتحقيق مطالبها، كما أنه ليس ملكا يتسامى عن المادة وينطلق من آصارها.

ولهذا فإن كيان الإنسان الحق لا بد أن يقوم على رعاية كلا الجانبين والوفاء بحاجاته المادية والمعنوية..

فلا بد للمجتمع المسلم أن يبرز الأهداف الروحية وأن يوليها من الرعاية والاهتمام ما يولي الأهداف المادية التي تعد ضرورة للإنسان.

وهو بهذا مجتمع متميز في منهجه عن المناهج الاجتماعية قديمها وحديثها، فلا يقصر نظره على مطالب المادة، ولا يسعى نحو رفاهية العيش

فحسب، ولكنه يقرن ذلك، بل يؤثر عليه، أن يمكن الإنسان من عبادة خالقه وأن يرشده في مسلكه في الحياة، وأن يصحح اتجاهه في دنياه ويحول بينه وبين الغواية والشقاء.

* * *

والآية التي تحوي شعار المجتمع الإسلامي وتوجز أهدافه هي قول الله سبحانه:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٢).

فنلمح في أنوارها الغابات التي يبتغيها الإسلام من مجتمعه والأهداف التي يوجه إليها أبناءه.

إنها تعلمنا أن المجتمع المسلم ليس مجتمع كلإ يتجمع أفراده على مثل ما يتجمع عليه الحيوان، وليس مجتمعا قصير النظر يلتفت إلى أحد جوانب الإنسان، ثم يعشو عن أخطر الجوانب وأولاها بالاهتمام، فيخطئ في تقدير الإنسان ويضل في توجيهه.

بل هو قبل كل شيء مجتمع مبادئ صالحة، عليه أن يستمسك بها وغايات شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية عليه أن يسعى نحوها.

فعليه أولا أن يحقق قيام الحياة الإنسانية على الإيمان بالله سبحانه والخضوع لأوامره والنزول على حكمه وابتغاء رضوانه، ثم يتجه بالبشرية إلى أقوم ما يمكن أن يرقى إليه البشر ويسمو بها إلى آفاق الحياة الكريمة المتوازنة.

ولذلك يحقق الخير ويدعو إليه، وينأى عن الشر وينهى عنه، ويقيم نظمه وبرامجه على أساس المبادئ الأخلاقية التي تصل بالفرد إلى المستوى الذي يصلح له..

ثم يسمو الإسلام بمجتمعه إلى الأفق الإنساني الشامل، فيجعل عليه واجبا بعد أن ينجح فى إصلاح نفسه وتقويم بيئته أن يمد النظر إلى الآفاق المظلمة في الأرض، في كل مجتمع يشقى بجهله ويتعثر في سعيه ويضل في اتجاهه فيرشد ويدعو ويبين ويصلح، حتى يعم الخير في الأرض ويسعد الإنسان في كل مكان.

وهذا ما يدعو إليه القرآن بقوله مخاطبا جماعة المؤمنين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(٣)..

وفي ذلك تبدو نظرة المجتمع المسلم إلى خير الإنسانية جميعا وسعيه إلى إسعاد البشر، لايقف عند حدود ضيقة ولا يبتغي نفعا قريبا، فما دام في الأرض جهل وانحراف، وما دام فيها ظلم و فساد، فإن على

المجتمع الإسلامي واجبًا لا يسقط، وعبئًا لا يخف ولا يهون. ومن هنا يفترق المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات التي لا تلتزم بواجب إنساني ولا تتحمل رسالة منزهة الهوى والغرض، من أجل نفع الإنسان والأخذ بيده إلى الخير والرشاد.

بل تقتصر تلك المجتمعات على أهداف مادية محدودة لا تعدو تحقيق الرفاهية والمتاع لأبنائها أو بعض أبنائها، على خلاف في أنماط المجتمعات.

* * *

والمجتمع المسلم يهدف في سعيه الأول إلى أن يحقق وجود الإنسان ذي الفطرة الصحيحة، وأن يعينه على أن يحيا الحياة المتوازنة التي أرادها الله للإنسان. فهو مجتمع يدرك حقيقة الإنسان ويضع برامجه وفق ما يلائم فطرته، ويمكنه من أن يؤدي واجبه ويحيا في نطاق الأصيل.

والإنسان في كل زمان بحاجة إلى ذلك المجتمع الذي يحول بينه وبين تدمير نفسه والتردي في مهاوي الشقاء. فربما يبتهج الإنسان حين يحيا في بيئة تفتح له أبواب الشهوات، أو تتيح له أن يصنع ما يشاء، ولكنه لن يسعد بذلك أبدا ولن يستقيم.

إنه حقا بحاجة إلى البيئة التي تضع له علامات في طريقه، تنذره بمواطن الخطر، وتوصد أمامه سبل الهلاك..

وذلك ما يصنعه المجتمع المسلم بالإنسان..

إنه يرسم له إطارًا لا يتعداه، يحرص فيه على إشباع ضروراته وتلبية نداء فطرته، والارتقاء بالإنسان إلى الغايات التي ترشحه لها مواهبه وخصائصه.

ثم يقوم حارسًا على الإنسان أن يطغى أو يحيد، بوسائل مختلفة فيها العظة والإقناع، وفيها كذلك الضوابط والحدود.. فلا يجد الإنسان أمامه إلا أن يسير في الطريق المعبد، دون أن تجره قدماه إلى المتاهات..

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٤)..

وهذه الغاية – من بناء الفرد الصالح ورعايته – من أهم غايات المجتمع الإسلامي يشير إليها القرآن الكريم ويوجه إليها أنظار المسلمين في كل زمان..

يقول الله سبحانه:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(٥)..

وفي هذا إجمال لمقومات الفرد المسلم التي يجب أن تتضح في صورة المجتمع كله، من أداء لحق الله سبحانه متمثلا في إقامة الصلاة، وأداء لحق الإنسان متمثلا في إيتاء الزكاة، ورعاية للأهداف الخلقية والاجتماعية متمثلا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

والفرد لا يستطيع أن يتمثل ذلك كله في غير المجتمع الإسلامي، إذ يحال بينه وبين تلك المبادئ الصالحة، وينساق وراء مجتمعه في سعيه نحو الأهداف المادية حتى لا يتخلف أو ينقطع..

فلم يكن بإمكان المسلم في مكة قبل الهجرة إلى المدينة أن يكون صورة لتلك المبادئ التي يريدها الله من عباده المؤمنين. ولهذا أشار القرآن الكريم إلى أنه لايطالب المسلمين بتحقيق تلك المبادئ إلا حين يظلهم لواء التمكين في الأرض وتجمعهم ساحة المجتمع الذي يمثل مبادئ الإسلام.. ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾..

ومغزى ذلك أن الإنسان في المجتمع الإسلامي يكتسب قوة غير قوته حين يعيش وحيدا ذليلا، في مجتمع لا يؤمن بالحق ولا يعمل له، وتتفتح أمامه سبل للعمل ليست له حين يحيا على هامش الحياة لا يشارك ولا يتحمل. والمجتمع الإسلامي يحمل على كاهله أن يأخذ بيد كل فرد إلى ما يحسن، وأن يدفعه إلى تزكية نفسه قدر ما يستطيع فهو «مجتمع الإنسان» بأقصى ما تحمله تلك الكلمة من معان وإيحاءات.

وتبدو بين غايات المجتمع المسلم غاية مضيئة لها قداستها في كل جيل وقبيل، تلك هي إقامة الحق ورعاية العدالة بين العالمين.

فما عرفت الدنيا مجتمعا يبتغي إقامة الحق منزها وتحقيق العدالة بين الكافة كالمجتمع المسلم.

لقد كان منطق القوة يسود مجتمعات الأرض، فترعى العدالة لنفسها وتنكرها على سواها، وتحرص على حقوقها بينما تدوس حقوق الآخرين.

ولكن القرآن كان يرى في قيام مجتمع يؤمن بالله ويحترم إرادته صيانة للعدالة في الأرض وإنصافا للخلائق أجمعين.

ولهذا كان الخطاب في القرآن يتجه إلى المؤمنين يذكرهم بتلك الغاية الجليلة المرجوة من مجتمعهم والتي لن يفلح فيها سواه..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٦)..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾(٧)..

وكان الاتجاه إلى تلك الغاية حاسما صارما، لا حيدة عنه ولا هوادة في الاستمساك به.

مما كان يجعل الوحي الإلهي يرقب سعي المجتمع الإسلامي الوليد نحو تلك الغاية ويحمي خطواته إليها..

فقد نزلت آيات من الكتاب الكريم في حادثة هينة، يحدث مثلها الكثير كل يوم في أنحاء الأرض، وهي اتهام البرئ، ومحاولة المذنب الإفلات، ولكن القرآن يرى فيها شائبة تحط من قدر العدالة، وربما

جعلت قيم الحق تهتز في النفوس.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾..

فإذا علمت أن المتهم الذي نزلت تلك الآيات في حرارتها وقوتها تدافع عنه وتبرئ مساحته - كان من اليهود وقد كانوا من ألد أعداء الجماعة الإسلامية اتضحت لك غاية جليلة من غايات المجتمع الإسلامي، وهي رفع لواء العدالة في عالم تسوده الأهواء وتنتشر فيه المظالم..

وكان ذلك الهدف من بين أهداف المجتمع الإسلامي مقياسا صادقا لاستقامة السير وصواب الهدف في كل أجيال ذلك المجتمع..

فما دام الحق والعدل لواء يخفق في ذلك المجتمع، فهو على صواب ورشد، وهو في هدى ونور..

أما إذا زاغ المجتمع عن الحق ولم يتحر العدالة في بنيانه وفي سلوكه فهو حينئذ منحرف عن القصد جائر عن الطريق..

وقد كان استمساك المجتمع الإسلامي بتلك الغاية في العصور الأولى لمجتمع الإسلام يثير الإعجاب في كل الأنحاء..

ويبدو ذلك جليا في معاملة المسلمين لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ممن كانوا يخالطونهم.

فقد كانت العدالة المنزهة تتضح فى كل تصرف بين المسلمين وبين غيرهم حتى في المواقف التي قد يحمد فيها التشفي والانتقام..

لما فتح المسلمون خيبر أقر رسول الله ﷺ اليهود فيها على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء..

وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرجها عليهم ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت! والله جئتكم من عند أحب الناس إلى: ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم!!

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[٨]!!

إن هذا الإحساس المرهف لم يكن أثر قانون أو دراسة اكتسبها المسلمون، ولكنه فعل العقيدة الإسلامية وأثر فكرة الإسلام الاجتماعية التي تضع

أمـام المـسلمين تـصورا كـاملا لغايـات الإسـلام وأهدافه. وتجعل إقامة العدل في قمة الأهداف.

وكـم مـن شـعوب بلغـت درجـات عاليـة مـن العلـم والحضارة لكنها لم تتعلم كيف تمسك بميزان العدالة مع الناس جميعا، فآمنت بحقوقها وأهدرت حقوق الآخرين..

* * *

أهداف فذة:

وحين نلقي نظرة تاريخية إلى مختلف الأهداف والغايات التي ابتغتها شتى المجتمعات الإنسانية قبل المجتمع الإسلامي وبعده، يتضح لنا حقا أن المجتمع الإسلامي يمتاز عليها جميعا بخصائصه الشاملة ونظره المحيط ونزعته الإنسانية المخلصة..

كانت المجتمعات التي عرفها التاريخ قبل المجتمع الإسلامي شقية بائسة، يسودها تحكم الفرد واستعلاؤه، وتضلها نزواته وأهواؤه، وتدلها مشيئته وإرادته..

كانت مجالا للصراع يلتهم فيه القوي الضعيف وتستعلن ضراوة الظلم، وتذوي فيه مشاعر التراحم ويخفت صوت العدل..

كانت الحروب تستعر من أجل هوى فرد، وقودها الشعوب المنهكة التي لا تملك أمرها ولا تبصر طريقها..

وكانت الثروات وقفا على أولي البأس، لا ترتبط بالعمل ولا ترتكن إلى الجهد..

وكان الناس في تلك المجتمعات جماعات تتطاحن تهلكها رحى الحياة الدائرة، لا يملكون من العواطف والمشاعر والآمال ما يخففون به عن أنفسهم وطأة الحياة التي كانت تبدو لهم عبئا ثقيلا لا يقدر عليه إلا أولو البأس القادرون على الصراع.

لا تجد في تلك المجتمعات من وضع نصب عينيه المبادئ التي يصلح عليها أمر الإنسان أو استهدف الغايات الإنسانية الشاملة التي ينبغي أن يتجمع عليها البشر. والتاريخ على ذلك شهيد..

هؤلاء اليونان أقدم البشر عهدا بالفلسفة وأحفلهم بالحكمة والمعرفة لم يستطيعوا أن يقيموا مجتمعا يحقق آمال الإنسان أو يصل به إلى الطمأنينة والسعادة..

حقا.. لقد حاول فلاسفة اليونان ذلك وذهبوا يضمون للمجتمع ما يرون من الوسائل والغايات، ولكن الخيال جنح بهم إلى آفاق بعيدة، ولم يكن بمقدورهم إدراك العناصر الكاملة التي تصلح أن تكون واقعا كريما يحيا في ظلاله البشر..

فقد تصوروا مدينة فاضلة تقوم على طبقات مختلفة، وفرقوا بين البشر باعتبارات لا يد لهم فيها، ولم يسلموا بمبدأ المساواة بين بني الإنسان؛ بل رأوا في الرق نظاما أمثل يصلح أمر المجتمع.. ونظروا إلى المال نظرات قاصرة لا تصل بالمجتمع إلى التكامل، ولا تحل مشكلة الغني والفقر.

وكفاهم أنهم لم يضعوا للحياة المنهج العملي

الذي يتلاءم مع واقع الناس ويرعى مصالحهم..

لـذلك لم يـنجح الفلاسـفة في بنـاء المجتمـع اليوناني، فلم يسعد ذلك المجتمع ولم يسعد غيره، بـل كانـت الحـروب المـستعرة تـستهلك المـشاعر والموارد، وتلقي بالناس في أتون مهين..

أما الإمبراطورية الرومانية فقد كانت مادية طاغية تتعبد للقوة وتمجد الغالب ولا تقيم للشعوب وزنـا، لم تحفـل بـالقيم الإنـسانية ولم يثبـت فيهـا للأخلاق بناء..

وقـد اسـتمرت قبـضتها الظالمـة عـلى شـعوب كثيرة، لم تلق منها خيرا ولم تنج من جبروتها وبأسها، ولم تـسعد بالحيـاة في ظلالهـا، حتـى أفـل نجمهـا وتقلص ظلها بعد ضعف ووهن..

* * *

وقد كانت الفترة التي سبقت ظهور الإسلام فترة مظلمة حقا في تاريخ المجتمع الإنساني، كانت تلك المجتمعات قد فقدت حق البقاء ولم يعد في مقدور مجتمع منها هداية الإنسان أو إسعاده..

كانـت المظـالم والـصراع والفـوضى تنتـاب شعوب الأرض..

وكانت الدنيا أشبه بغابة واسعة يفترس فيها الأشداء من هم أقل منهم قوة.

وكانت صلة البشر بعضهم ببعض لا تعود إلى حق أو عدل..

والـشعوب قـد خفـت صـوتها في مواجهـة الطغاة، لا تجد ملجأ ولا تهتدي لمنجىً يقيها اليأس والهوان..

حتى جاء الإنسان ليبدأ في كتاب الحياة صفحة جديدة، وليقيم من الأرض مجتمعا مثاليا يصدر عن إرادة الله وينقاد لحكمه..

مجتمع فاضل حقا.. إذ يقوم على مبادئ صالحة وحقائق لا تتبدل ولا تختلف...

مجتمـع «عـادل» لانـه يبتغـي إنـصاف الإنـسان وحفظ حقوقه، وتحطيم قبضة الجبابرة التي تمسك زمام الشعوب المستضعفة ولأنه يطبق شريعة الله التي حكم فيها بين عباده.. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٩)..

مجتمع رحيم، لأنه يبني كيانه على أساس أخوة البشر وتكافل الأقوياء والضعفاء، فلا يجمع بين قطعان متنافرة أو ذئاب متناحرة؛ بل يستثير في بني الإنسان أرق وأندى ما تشتمل عليه نفوسهم من مشاعر، ويجعل من الغايات الروحية التي يلتقي عليها أفراده سياجا يجمع بين الناس برباط لا ينفصم: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١٠)..

* * *

مقارنة:

وحين تبحث عن غايات المجتمعات المعاصرة ندرك أيضا تفوق المجتمع الإسلامي عليها وامتيازه

بالمزاوجة بين الروح والمادة ووضعه قيما عليه يحرص على تحقيقها..

إن الحضارة الحديثة لا تجعل لمجتمعاتها غاية أكثر من بلوغ أفرادها أقصى غاية المتاع واللذة..

ولا تحفل بالمشاعر الإنسانية والقيم التي ترتفع عن المادة وتستعلي على نطاقها.

وذلك قدر مشترك بين المجتمع الرأسمالي والمادي، على اختلاف الوسائل والبرامج.

ففي الغرب يعيش الناس بلا أهداف ولا قيم، حيث تتبدل الأخلاق وتتغير الموازين، وتقفر النفوس من الخير وتشتد حدة الصراع..

ورغم التقدم في وسائل الحياة وأساليب المتاع، فإن مضمون الحياة نفسها أو الإحساس بقيمها في هبوط واضطراب..

ولم يستطع ذلك المجتمع رغم الغنى والرفاهية أن يقضي على الفقر، ويأخذ بأيدي العاجزين أو يخفف عن الناس قسوة الصراع على موارد الحياة.. ذلك لأنه لا ينظر إلى الحياة الإنسانية النظرة الكاملة ولا يأخذ في اعتباره حقيقة الإنسان.. فهو فى طريقته يصادم الفطرة ويبدل الأصول الثابتة في حياة الإنسان..

ويدلنا على حالة ذلك المجتمع الغربي ما يسوده من أمراض نفسية وخلقية وما يشيع فيه من جريمة وفساد..

أما المجتمع المادي فى أنحاء الأرض، رغم ما يسوده من شعارات وما يغمره من حماسة فهو مجتمع شقي بائس!

فما معنى أن يصير الإنسان - في سعيه إلى القوت - عبدا للإله، سجينا في قضبان من الرعب والعبودية للبشر، الذين يوهمونه أنهم يحمونه من الاستغلال والظلم!!

إن الإنسان في المجتمع المادي ليس هو الإنسان كما خلقه الله!

إنه إنسان شائه الفطرة ممسوخ التفكير، فقد حريته وكيانه، ورضي من حياته بلقمة العيش وعبادة البشر!!

ويكفي أن يقوم كيان ذلك المجتمع على تجاهل الحقيقة الكبرى في حياة الإنسان، وهو أنه عبد للخالق العظيم الذي استخلفه في هذه الأرض واستعمره فيها.. وأن عمارة الإنسان للأرض وتفوقه في استثمار خيراتها ليست إلا جزءا من عمله في هذا الكون، وليست هي الغاية الوحيدة من وجوده في الحياة.

* * *

إن الخطة التي رسمها الإسلام لمجتمعه تتميز بسعيها نحو سعادة البشر جميعا، فهي لم تصدر عن طبقة ولا فرد، بل صدرت عن خالق البشر ولم نقم على تجارب قاصرة أو شعارات كاذبة، بل قامت على مبادئ صادقة تطابق حقائق الأشياء، وتتفق مع سنن الحياة..

ولهذا فقد اتصف المجتمع المسلم بالإخلاص لحقوق الكافة والمساواة المنزهة بين طوائف الخلق وبالشمول في النظر للحياة وتحديد أهدافها.. وبالغايات الروحية من وراء النشاط المادي، وبمتانة الأواصر التي تربط بين الأفراد في ذلك المجتمع..

ولقد نجح المجتمع المسلم فيما فشل فيه سواه من قبل ومن بعد..

لقد قامت في الأرض بواقعها المادي ومضايقها ومصاعبها أمة عرفت كيف تحترم إرادة خالقها وتحيا وفق سننه الصادقة، وكيف تعيش في واقعها مرتبطة بقيمها صادرة من مثلها، تخضع الحياة لا تؤمن به من مثل وما تبتغيه من غايات..

ولا يعترضنا صوت ليقطع علينا السبيل فيقول:

أتعني بذلك تلك الفترة القصيرة التي عاشها الرسول - صلوات الله عليه - مع أصحابه في المدينة، أو خلافة أبي بكر وعمر؟

وهل ننسى بعد ذلك ما نشب بين المسلمين من صراع على الحكم وما ساد مجتمعهم من مظالم في الأموال والحقوق، وما ارتفع في مجتمعهم من عصبية ونعرة..؟!!

والحق أن تلك الأخطاء ليست دليلا على فشل النظام الإسلامي أو صعوبة تطبيقه ولكنها أعراض تنتاب الجماعات وأدواء لا بد أن نضعها في الحسبان، وعلل إنسانية لا بد أن تدبر لها الحلول، فإن الشر دائما يتعقب الخير ليغتاله ورياح الأهواء دائما تهب لتعصف بالمثل والمبادئ، في كل جيل وقبيل.

والإسلام قد وضع في نظمه ما يكفل حراسة مجتمعه وما يحتم على الأمة أن تستيقظ للذود عن أهدافها وصيانة مثلها، وأن تقف بالمرصاد للذئاب المتربصة التي تغتال حقوق الأمة وتقتنص أمانيها..

* * *

وليس يمكن لأحد أن ينكر أن المجتمع الإسلامي قد بقي يؤدي مهمته ويسعى نحو غاياته ويصون مبادئه طيلة القرون الماضية، بينما كان ما حوله من المجتمعات الأخرى يعبث في الظلمات ويتخبط في المتاهات ويصطلي بنيران الصراع ويعاني من وطأة المظالم.

ولا زال قائما في كل بيئة يصح فيها الإيمان وتصدق النية لاتباع صراط الله المستقيم..

* * *

الهوامش:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣١.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) سورة الحج..
(٤) سورة الأنعام..
(٥) سورة الحج..
(٦) سورة المائدة..
(٧) سورة النساء..
(٨) السيرة النبوية لابن كثير ٣/٣٧٨..
(٩) سورة المائدة..
(١٠) سورة الأنفال..

أبو حازم وسليمان بن عبد الملك(١)

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عميرة

وهذا رجل من صحابة رسول الله ﷺ ممن تربى في مدرسة القرآن ونهل من نبع النبوة يلتقي مع رجل آخر من رجال السلطان والملك ويدور بينهما هذا الحوار:

روى الدارمي في مسنده عن الضحاك بن موسى قال:

مرَّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فقام بها أياما.

فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحدًا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:؟

قالوا له: أبو حازم - فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له:

يا أبا حازم ما هذا الجفاء..؟

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، وأي جفاء رأيت مني..؟

قال سليمان: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني.

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن!؟ ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك.

فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري فقال: أصاب الشيخ وأخطأت.

قال سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت:؟

قال أبو حازم: لأنكم خرَّبتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب.

قال: أصبت يا أبا حازم، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى:؟

قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالعبد يقدم على سيده.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله:؟

قال أبو حازم: اعرض عملك على كتاب الله.

قال سليمان: وأي مكان أجده..؟

قال أبو حازم: عند قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾(٢).

قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم..؟

قال: إن رحمة ﷺ قريبة من المحسنين.

قال سليمان: فأي عباد الله أكرم..؟

قال: أولو المروءة والنهى.

قال سليمان: فأي الأعمال أفضل..؟

قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب

المحارم.

قال سليمان: فأي الدعاء أسمع..؟

قال: دعاء المحسن إليه للمحسن.

فقال سليمان: فأي الصدقة أفضل..؟

قال أبو حازم: للسائل البائس، وجهد المقل ليس فيها مَنّ ولا أذى.

قال سليمان: فأي القول أعدل..؟

قال أبو حازم: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه.

قال سليمان: فأي المؤمنين أكيس..؟

قال أبو حازم: رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها.

قال سليمان: فأي المؤمنين أحمق..؟

قال أبو حازم: رجل صار في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

قال له: سليمان أصبت فما تقول فيما نحن فيه..؟

قال: يا أمير المؤمنين، أو تعفيني..؟

قال له سليمان: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليَّ.

قال أبو حازم: إن آباءك قهروا الناس بالسيف. وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم، قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت بما قالوه وما قيل لهم..؟

فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم.

قال أبو حازم: كذبت إن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء لتبيننه للناس ولا تكتمونه.

قال له سليمان: فكيف لنا أن نصلح..؟

قال: تدعون الصلف، وتتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية.

قال له سليمان: فكيف لنا بالمأخذ به..؟

قال أبو حازم: تأخذه من حله وتضعه في أهله.

قال له سليمان: هل لك يا أبا حازم، أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك..؟

قال أبو حازم: أعوذ بالله.

قال له سليمان: ولم ذلك..؟

قال: أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك.

قال أبو حازم: تنجيني من النار، وتدخلني الجنة.

قال له سليمان: ليس ذاك إليَّ.

قال أبو حازم: فما لي إليك حاجة غيرها.

قال له سليمان: فادع لي.

قال أبو حازم: اللّهم إن كان سليمان وليك فيسره الخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

قال له سليمان: قط.

قال أبو حازم: قد أوجزت وأكثرت إن كنت

من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي من قوس لها وتر.

قال له سليمان: أوصني.

قال: سأوصيك وأوجز، عَظِّمْ ربك، ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفتقدك حيث أمرك.

قال الراوي: فلما خرج أبو حازم من عند سليمان بعث إليه بمئة دينار وكتب إليه: إن أنفقتها لك عندي مثلها كثير. فردها عليه أبو حازم وكتب إليه: يا أمير المؤمنين: أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً أو ردي عليك بذلاً، وما أرضاها لك. فكيف أرضاها لنفسي..؟

ثم ساق أبو حازم في كتابه إلى سليمان قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح، وقد سقى لهما غنمهما ثم التجأ إلى الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٣] فسأل ربه ولم يسأل الناس ثم قال أبو حازم: فإن كانت هذه المئة دينار عوضًا لما حدثت فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل من هذه، وإن كانت لحق فى بيت المال فلي فيها نظراء، فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة.

رحم الله أبا حازم، وأسكنه فسيح جنات الصديقين والشهداء؛ لأنه نصح الخليفة. وأمره بالرفق بالرعية، ونهاه أن يكون جبارًا في الله. وذكَّره أن العاقبة للمتقين.

شريك بن عبد الله والأمير موسى بن عيسى

روى صاحب العقد الفريد أن امرأة أتت يوما القاضي شريك[٤] بن عبد الله قاضي الكوفة – وهو في مجلس الحكم.

فقالت: (أنا بالله ثم القاضي).

قال: من ظلمك..؟

قالت: الأمير موسى بن عيسى بن عم أمير المؤمنين.

ثم ذكرت قصتها فقالت:

(كان لي بستان على شاطىء الفرات فيه نخل ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطا، وجعلت فيه رجلا فارسيا، يحفظ النخل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساومني فلم أبعه فلما كانت هذه الليلة بعث بخمس مئة غلام وفاعل، فاقتلعوا الحائط وأصبحت لا أعرف من نخلى شيئا، اختلط بنخل إخوتي).

فقال القاضي شريك: (يا غلام أحضر الطينة – أى الخاتم– فكتب ورقة وختمها وقال للمرأة: امض إلى بابه بالختم حتى يحضر معك).

فجاءت المرأة بالورقة المختومة فأخذها الحاجب.

ودخل على موسى بن عيسى فقال: قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه.

فقال الأمير: ادع لي صاحب الشرطة فدعا به.

فقال له: امض إلى شريك وقل له:

(سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها عليَّ..؟)

قــال صــاحب الــشرطة: إن رأى الأمــير أن يعفيني من ذلك..؟

قال: امض ويلك.

فخرج صاحب الشرطة، وقال لغلمانه: اذهبوا وأدخلوا إلى حبس القاضي بساطًا وفرشًا وما تدعو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شريك.

فلما وقف بين يديه أدى الرسالة.

فقال القاضي لغلام المجلس: (خذ بيده فضعه في الحبس).

فقال صاحب الشرطة: والله لقد علمت أنك تحبسني فقدمت ما أحتاج إليه إلى المجس.

وبلغ الأمير موسى الخبر، فوجه الحاجب إليه وقال له: رسول أدى الرسالة أي شيء عليه..؟

فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس، فحبس الحاجب مع صاحب الشرطة، فلما صلى الأمير موسى[٥] العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك وقال لهم: امضوا إلى القاضي وأبلغوه السلام وأعلموه أنه استخف بي، وأني لست كالعامة.

فمضوا - وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر فأبلغوه الرسالة.

فلما انقضى كلامهم قال لهم القاضي: (وما لي أراكم جئتموني في جماعة من الناس فكلمتموني..؟)

من هنا من فتيان الحي..؟

فأجابه جماعة من فتيان الحي.

فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس.

ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس.

قالوا: أجاد أنت..؟

قال: حقًّا حتى لا تعودوا إليَّ برسالة ظلم فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى في الليل إلى باب السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره.

فدعا بالقمطر فختمه ووجه إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكنهم أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزار إذا تقلدناه لهم.

ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب في موكبه ولحقه وجعل يناشده الله.

ويقول: يا أبا عبد الله، تثبت انظر إخوانك تحبسهم وهم أعواني.

قال: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم

المشي فيه، ولست ببارح أو يردوا جميعا إلى الحبس، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني. فأمر موسى بردهم جميعا إلى الحبس وهو واقف مكانه حتى جاءه السجان فقال: قد رجعوا جميعًا إلى الحبس.

فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابته بين يدي إلى مجلس الحكم فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد وجلس في مجلس القضاء.

فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كل أمر، أنا قد حضرت أولئك يخرجون من الحبس.

فقال شريك: أما الآن فنعم، أخرجوهم من الحبس.

فقال: ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة..؟

قال: صدقت.

قال: ترد ما أخذت منها وتبني حائطا سريعا كما كان.

قال موسى: أفعل ذلك كله..؟

قال القاضي للمرأة: أبقي لك عليه شيء..؟

قالت: بيت الرجل الفارسي ومتاعه.

قال موسى: ويرد ذلك كله.

قال القاضي: أبقي لك عليه دعوى..؟

قالت: لا. وبارك الله عليك وجزاك خيرا.

قال: قومي، فقامت من مجلسه.

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه.

وقال: (السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء...؟).

قال: أي شيء آخر..؟ وضحك.

فقال له شريك: أيها الأمير: ذاك الفعل حق الشرع. وهذا القول الآن حق الأدب.

فقام الأمير وانصرف إلى منزله، وهو يقول: من عظّمَ أمر الله أذل الله له عظماء خلقه.

* * *

الهوامش:

(١) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان - أبو أيوب الخليفة الأموي. ولد في دمشق عام ٥٤هـ وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ. عندها أطلق الأسرى، وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس. جهز جيشا كبيرًا بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية ففتحها، وفتح جرجان و طبرستان توفي في دابق عام ٩٩هـ رحمه الله.
[راجع اليعقوبي ٣-٣٦ وابن خلدون ٣-٧٤].

(٢) سورة الانفطار آية رقم ١٣-١٤.

(٣) سورة القصص الآية ٢٤.

(٤) هو شريك بن عبد الله بن الحارث الشخصي أبو عبد الله عالم الحديث، فقيه اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته استقضاء المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣هـ ثم عزله، وأعاده المهدى فعزله موسى الهادي، وكان عادلاً في قضائه مولده في بخارى ووفاته بالكوفة عام ١٧٧هـ رحمه الله..
[راجع تذكرة الحفاظ ١-٢١٤].

(٥) هو موسى بن عيسى أمير من آل عباس كان جوادًا عاقلاً ولى الحرمين للمنصور والمهدى مدة طويلة، ثم ولى اليمن للمهدي وولى مصر للرشيد سنة ١٧١هـ ثم عاد للعراق فولى الرشيد الكوفة ثم دمشق توفى عام ١٨٣هـ.
[راجع النجوم الزاهرة ٢-٦٦]

* * *

من خصائص التربية الإسلامية

بقلم: الأستاذ/ حسن عزوزي

تربية

يعتبر الفكر التربوي الإسلامي فكرًا تربويًّا متميزا انبجس إلى الحياة مكتملا وناضجًا ولم يكن قيامه ثمرة تقاليد وأعراف حفل بها الماضي كما هو الشأن في كثير من الحضارات؛ بل إنه توافر على خصائصه التامة والشاملة منذ نزول القرآن الكريم الذي رافقته سنة المصطفى – عليه الصلاة والسلام – الطاهرة والتي كانت نبراسًا ودستورًا وافيًا لأسس الفكر التربوي الإسلامي الذي سار المسلمون على اقتفائه والاهتداء بمعالمه عبر القرون.

وتعتبر المسألة التربوية المشكل الأساسي الذي تعاني منه كثير من الحضارات، كما تعتبر المسؤول الأول عن كل خلل يصيب كيان أمة من الأمم، ولعل هذا هو السبب الذي جعل كثيرا من الدول تعدل عن تسمية وزارات التعليم إلى تسميتها وزارات التربية، إذ لايخفى على أحد أن التعليم في جميع أشكاله ومستوياته ليس إلا إحدى وسائل التربية المستمرة ونقصد بالتربية المستمرة عدم اقتصارها على مرحلة الطفولة والشباب ولكنها عملية مستمرة ومتجددة مع الإنسان مدى حياته، وقد سبق الإسلام علماء الغرب المحدثين في تنمية هذا المفهوم فقول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) كما جاء في الأثر «لايزال الرجل عالما ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل» كل هذه النصوص دالة على التوجيه نحو تربية مستمرة لاتقف عند مرحلة معينة أو جانب محدود.

وإذا كان الفكر التربوي الإسلامي قد بُني على أسس متينة من التوجيه الرباني والإرشاد النبوي؛ فإنه قد تميز بخصائص ومقومات جعلته ينفرد بالسمو والكمال عن باقي المناهج التربوية التي عرفتها الإنسانية عبر العصور والتي كانت في معظمها من وضع فلاسفة التربية والأخلاق الذين ما فتئ الواحد منهم ينقض نظرية سلفه ويبرهن على تهافتها معلنا نظرية جديدة – هي بدورها – سرعان ما يتم نسخها من جديد، أما التربية الإسلامية

الصحيحة القائمة على توجيه الفرد المسلم في جميع أطوار حياته دونما إغفال أو إهمال لجانب من جوانبها فهي غير مقيدة بزمان معين أو بقوم من الأقوام؛ بل هي موضوعة لكل زمان ومكان مرتبطة بالوجود الإنساني دوما وأبدا، فهي تربية خالدة مستمرة لأنها مقتبسة من نور الوحي الإلهي عكس ما عرفته البشرية من نظريات تربوية وضعية سرعان ماباءت بالفشل الواحدة تلو الأخرى.

ولعل في صفة الخلود والدوام التي طبعت منهاج التربية الإسلامية ما يجلعنا نتساءل عن الخصائص التي تميزها والمضامين الأصلية التي تحتوي عليها ولن تبرز أهمية بيان تلك الخصائص دون الإشارة إلى ما عرفه الفكر التربوي الغربي من نقائص وعيوب جعل المنهاج الذي يستهدي به متهافتا فأتقن الوسيلة وأضاع الهدف. إذ إنه حريص على تثبيت دعائم السلوك الشخصي والآداب العامة وأغفل الاهتمام بالفضيلة والأخلاق السامية.

إن من أبرز خصائص التربية الإسلامية اصطباغها بالصبغة الدينية والأخلاقية وتكاملها وشموليتها لكافة جوانب الحياة والتنمية الاجتماعية والفاعلية والإيجابية في كيفية صرف الطاقات الإنسانية إضافة إلى التوازن في أهدافها وواقعيتها وقالبيتها للتطبيق والتغيير والتطور في ضوء القواعد الكلية والمبادئ العامة للدين الإسلامي، ولعل أحسن تعريف يحدد المفهوم الإسلامي للتربية هو رعاية نمو الإنسان في جوانبه الجسمية والعقلية واللغوية والانفعالية والاجتماعية والدينية وتوجيهها نحو الصلاح والوصول بها إلى الكمال(١).

وفيما يلي محاولة للإلمام ببعض تلك الخصائص وإبراز أهمية التمسك بها ومراعاتها في سياق ما تعرفه مجتمعاتنا المعاصرة من انفلات صارخ في مضامين التربية الإسلامية الأصيلة وتخَلِّ شبه تام من شبابنا عن أصول وأسس الفكر التربوي الإسلامي وانسياقه ولهثه وراء الحضارة الغربية الفارغة من كل مقومات التربية الخلقية السليمة.

الأصالة

تتميز التربية الإسلامية بأصالتها الواقعية المستمدة من الكتاب والسنة، فالفكر التربوي الإسلامي يستمد أصالته من نظرته الخاصة إلى الإنسان وعلاقتها بالحياة المجتمعية عكس ما اختصت به النظرات والمواقف الفلسفية الأخرى التي سادت ربوع العالم وبخاصة في العصر الحديث وتتجلى خاصية الأصالة هذه في ربانية معطيات الإسلام التي تهدف بالأساس إلى بناء الإنسان المسلم القويم وليس من التجاوز في شيء التأكيد على أن تلك المعطيات تعتبر تربوية بالدرجة الأولى

لأنها تنظم حياة المسلم وعليها ينشأ وينشئ، وهدفها الأساسي بناء الشخصية المسلمة والإنسان الصالح.

فإذا كان الإنسان على هدي الداروينية حيوانا لارفعة فيه ولا روحانية وصار يلهث وراء الحياة منسلخا من كل قواعد الفطرة السليمة وقواعد التقاليد والأعراف المجتمعية وإذا كان التفسير الماركسي للتاريخ يصر على أن الأخلاق والعقائد لاتحرك الإنسان أو ترسم له سلوكه العملي في واقع الحياة وإنما يجيء كل ذلك لاحقا لكل وضع اجتماعي أو اقتصادي إذ كان كل ذلك هو واقع الإنسان الذي لاحظ له من السلوك أو الأخلاق(٢) فإن المنهج الإسلامي في التربية ينحو منحى آخر يرتكز أساسا على توجيه الفطرة السليمة إلى إحكام تربية قدرات الإنسان الصالح وإيجاد مكونات العمل الصالح، فالعمل الصالح هو مقياس الإنسان الصالح قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك:٢).

فالعمل الصالح هو الترجمة العملية والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حددتها فلسفة التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق والكون والحياة والإنسان والآخرة.

ولابد من التمييز في هذا السياق بين المصادر الأصيلة التي تستمد منها التربية الإسلامية مقوماتها وأهدافها وبين تجليات الفكر والآراء المعتبرة والاجتهادات التطبيقية لكبار علماء التربية المسلمين الذين تعاملوا مع المصادر الأصلية واستنبطوا منها جوانب كثيرة تتصل بواقع الحياة. إنها تفرقة تضع الحد الفاصل بين الثابت والمتغير وبين المطلق والنسبي(٣).

الشمولية والتكامل

لقد كان من أكبر الأخطاء التي ارتكبها الفكر التربوي غير الإسلامي إيمانه بالجانب المادي من الإنسان والحياة دون أدنى تشوف إلى الجانب الروحي، وإذا كان المنهج التربوي الغربي لايقيم للعقيدة وزنا ولا للمثل والأخلاق اعتبارا، وهدفه الوحيد بناء الفرد والمجتمع على أساس من المحسوسات والماديات حيث نتج عن ذلك سيطرة الغرائز وفقدان الوازع الديني الموجه الأساسي لكل سلوك بشري واضطراب مفهوم القيم والمثل العليا، فإن المنهج الإسلامي في التربية عكس ذلك أنه ينظر إلى الدين والإنسان والمجتمع نظرة كلية وشاملة. إذ إن الإسلام الذي تقوم على أساسه التربية الإسلامية شمولي في اهتماماته وفلسفة تفسيره للوجود والكون والحياة مؤكدا التصور الجامع بين الروح والمادة وبين النفس والجسم وبين الفرد والجماعة، وبالتالي بين الدنيا والآخرة.

وإذا كانــت التربيــة الحديثــة بفــضل تجاربهــا المتواصلة والمتعاقبة قد توصلت في بعض البلدان الغربية إلى ضرورة تأكيد نزعة الشمول التي تتعلق بتكوين شخصية الفرد في شتى الجوانب الإنسانية وهو منزع جاء به الإسلام كما هو معلوم منذ أربعة عشر قرنا فإن نتائج تجربتها هذه لم تثمر الغاية المنشودة؛ لأن نسق الفكر الغربي مهما حاول الالتفات – بصعوبة وعلى مضض – إلى الجانب الروحي في مجال التربية فإن عدم إيمانه بأن أساس كل ذلك ترسيخ عقيدة الإيمان بوجود الله ووحدانيته والعبودية له جعل كل محاولة في هذا الاتجاه تبوء بالفشل الذريع.

إن خاصية الشمول والتكامل التي تعتبر من أبرز خصائص التربية الإسلامية تهدف إلى تنمية وتهذيب كافة جوانب شخصية الإنسان واستعداداته وقدراته، وإلى المساهمة في تنمية كافة جوانب الحياة في المجتمع وحل مشاكله بالشمولية التي تطبع التربية الإسلامية تجمع بين البعد التربوي الذي تأكد أنه روحي من حيث إنه يسعى إلى تكوين ملكات الفكر والذوق وحياة القلب المبنية على الإيمان الصحيح وبين البعد المادي المبني على كيفية تنمية القدرات العقلية والخبرات الاجتماعية والمهارات المادية فهي أي التربية الإسلامية تقدر الطبيعة الإنسانية المكونة من جسم وروح وتأخذ في الاعتبار مطالب الجسم والروح ومطالب الدنيا والآخرة فالإسلام بتعاليمه وقيمه وأخلاقه يعالج الإنسان معالجة كلية تكاملية متوازنة ويجسم كل هذا شمولية التربية الإسلامية وتوجهها الإسلامي إنسانيا وعالميا بعيدا عن أية نظرة ضيقة الأفق.

الأخلاقية

لعل من أبرز سمات هذه الخاصية جعل كل أعمال المسلم طريقا للوصول إلى الله وليست غاية في ذاتها، فمن أخلاقيات التربية في الإسلام عملية الربط الدائم بين ماهو دنيوي بما هو ديني، وهي ركيزة حضارية أساسية ينبثق منها الفكر الإسلامي القادر على التفتح عن غيره من الحضارات والعلوم والثقافات دونما خوف أو توجس من خطورة تطور العلوم التكنولوجية مادامت لن تستخدم إلا في صالح البشرية وتعمير الأرض على هدي من المنهج الرباني.

إن الأخلاقية التي يدعو إليها الإسلام في السلوك التربوي تقوم على أساس أن المسلم يربي روحه ونفسه على الخلق الإسلامي الجميل موجها عقله إلى التدبر في سنن الله الكونية والتأمل في حقائق الوجود. أما المناهج التربوية غير الإسلامية

فهي تقوم على تربية الفرد وفق سنن وقوانين الطبيعة كما يسمونها بمعزل تام عن الإيمان بالوحي والغيب والفضيلة، فما كان أن صارت المؤسسات التربوية الحديثة تفرز إنسانا لايتصف بأية ضوابط أخلاقية ولامقاييس اجتماعية وهو – في أحسن احواله – يكون محايدا أخلاقيا أي لاهو إلى جانب الأخلاق ولاهو ضدها وإنما يتصرف طبقا لما تمليه رغباته ومصالحه المتلونة الموقوتة(٤).

إن من وسائل التربية الإسلامية في تنمية قدرات النشء الأخلاقية والاجتماعية توفير القدوة الصالحة والمثل الأعلى لأنه بذلك يتم توفير المناخ المناسب لتقوية الوازع الديني والخلقي في جميع الأوساط التي يتفاعل معها النشء والمثل الأعلى في منهاج التربية الإسلامية والذي يقابله في مناهج التربية الحديثة ما يعرف بنظام القيم أي أنموذج الحياة التي يراد للفرد المسلم أن يحياها وقد قرر القرآن الكريم أن الله وحده هو الخالق المصمم لصورة الإنسان الصالح المصلح وأنه لايمكن أن يشاركه أحد في تحديد المثل الأعلى قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الروم:٢٧).

ويتمثل الدور الذي تقوم به التربية الإسلامية في تنشئة الفرد المسلم على تعشق المثل الأعلى وتجسيده في حياته من خلال تثبيت أسس ودعائم فقه السير (أي سير الأنبياء وأبطال الإسلام والعلماء ورجالات الفكر) وعلى رأس ذلك كله سيرة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – لما في ذلك من بعث وإحياء للروح الخيرة في الناشئة والتي تجسد فيهم معاني الأخلاق الفاضلة والمثل العليا والمبادئ السامية مما يساعد على تطبيق السلوك الأخلاقي والاجتماعي والتربوي.

ولعل في افتقاد القدوة المثالية والأسوة الحسنة في البيت والمجتمع ما جعل كثيرا من شبابنا يلتجئون إلى التماس القدوة في رموز غربية وافدة زينها الغرب في نفوس المسلمين، ففرضت فيها تأثيرا أقوى من تأثير الأقلام والخطب، وإذا كنا نطمح إلى إيجاد المثل الأعلى في الساحة التربوية الإسلامية فيجب على المربين والمعلمين أن يتصفوا بالقيم الفاضلة والمثل الرفيعة والعمل الجاد مما يهيئ المجال لانتشار القدوة الحسنة والمثل الأعلى وبخاصة في واقع الحياة، وبذلك نستطيع ضمان طرح البديل الإسلامي لما يعاني منه الشباب المسلم من ضياع واستلاب فكري تربوي وافتقاد للقدوة الحسنة المتميزة.

إن ربانية الفكر التربوي الإسلامي مصدر

وتوجه تجعل الأخلاقية من أهم خصائصه وركيزة أساسية في بناء شخصية الفرد المسلم الملتزم القادر على مواجهة التحديات الراهنة والمستقبلة.

الواقعية وقابلية التطبيق

لما كانت مبادئ التربية الإسلامية مستوحاة من الكتاب والسنة كان من المحتوم بعدها عن الخيال والتخبط؛ وسلوكها منهجا عمليا واقعيا يناسب الفطرة الإنسانية ويلائم الظروف والإمكانات المتاحة لكل من الفرد والمجتمع، فالله سبحانه وتعالى لما شرع للإنسان المسلم أسسا ودعائم المنهج التربوي في الإسلام أرساه على شكل قواعد متينة تحقق أهدافا واقعية ممكنة التطبيق في عمومياتها في كل زمان ومكان.

وتعتبر مبادئ التربية الإسلامية الواقعية أبعد ما تكون عن مجرد شعارات ترفع وتردد كما هو الحال في كثير من الفلسفات التربوية الوضعية كما أنها أبعد ما تكون عن المثالية التي لا إمكانية لتطبيقها في واقع الحياة.

فالتربية الإسلامية منهجا ومبادئ هي أقرب ما تكون قابلة للتطبيق في ظل ظروف المجتمع الفاضل الصالح المتماسك والقائم على أساس من الدين والأخلاق والذي يتحقق في أجوائه العدل والتعاون بين مختلف فئات المجتمع وأفراده.

ولعل في خاصية الواقعية التي تميز الفكر التربوي الإسلامي ما يجعل الأخلاق الإسلامية متمشية مع إمكانات الإنسان البشرية ومسايرة ومطابقة تماما لفطرته السليمة ومن مظاهر هذه الواقعية التوفيق بين مطالب الروح والجسد معا وعدم تكليف الإنسان مالايطيق أو يفوق قدراته وإمكاناته.

الثبات والخلود

مما لاشك فيه أن الله تعالى حينما رسم للإنسان طريق الفلاح والسعادة وشرع له سبل وأسس التربية الناجحة قدر لها التوافر على عنصر الثبات حتى لا تكون خاضعة للتغيير والتبديل مع تقلبات الهوى كما كتب لها الخلود وصلاحية التطبيق في كل زمان ومكان وارتضى لها مسايرة التطور بمرونة ويسر.

فإذا كانت حضارات قديمة وحديثة عدة قد تعارفت على آداب للسلوك ومفاهيم للتربية والأخلاق فإن أهم ما يؤخذ عليها أنها خضعت لمنطق البيئة وتطورت مع تطور الحضارات حتى وصلت في الأخير وفي عصر المدنية الحديثة إلى ما وصلت إليه من تنكر صارخ لكل القيم والمثل العليا والتحلل من كل قيود الفضيلة والعفة والفطرة السليمة فأباحت الكذب والفسق والغدر وجعلت

غاية الحياة مبنية على المتعة واللذة، بما يعتبر دعوة إلى الانحـلال الخلقـي والانفـلات مـن آداب الفطـرة والتربية الخلقية السليمة، ولقد كان في مقاطعة دول إسلامية ومعارضة أخرى بشدة لكل تلك البنود التي تمس الأخلاق النبيلة والفضائل السامية مايعزز خاصية الثبات والخلود في الفكر التربوي الإسلامي إذ أنه على الرغم من موجات التحرر والانحلال الخلقـي وإهـدار القـيم الأخلاقيـة ممـا تعـاني منـه المجتمعات غير الإسلامية فإن الموقف الإسلامي في شـأن الأخـلاق والتربيـة يبقـى موحـدا وثابتـا، فقوانين الفطرة السليمة تلزم تربية الإنسان على حياة الطهارة والعفة والشرف والفضيلة(٥).

ولا يمكـن أن يفهـم مـن خاصية الثبات جمود التربيـة الإسـلامية في أهـدافها ومناهجهـا وطرقهـا فذلك مالايقول به من له أدنى إحاطة بفلسفة الفكر التربـوي الإسـلامي فالتجـدد والتطـور باسـتمرار وقابلية التغيير هي من خصائص التربية الإسلامية أيـضا لكـن في إطـار الثوابـت مـن أصـول الايـمان والقواعد الكلية للدين.

فاحتياجات الزمان والمكان لمقتضيات التطور والتغير الاجتماعيين ولمـصالح الفرد والجماعـة التي تقـوم عـلى مراعاتهـا الـشريعة الإسـلامية تفـرض التجـدد والتطـور ومسـايرة العـصر دون افتقـاد لأي مـن المقومـات والـدعائم الثابتـة في إطـار الـشريعة الإسلامية.

هـذه إذن بعـض خـصائص ومقومـات التربيـة الإسـلامية التـي تبـدو سـامية ومتميـزة تعرضـنا لهـا بإيجـاز واقتـضاب لإجـلاء مكـامن القـوة والإيجابيـة والفاعليـة في فكرنـا التربـوي الإسـلامي، لكـن يبقـى الـسؤال المطـروح حـول مـدى اسـتفادتنا مـن كـل ذلـك وترجمتـه إلى الـواقع الملمـوس، إن ممـا لاشـك فيـه أنـه إذا كـان المجتمـع الإسـلامي قـد أصـابه مـا أصابه فما ذلك إلا من تخلف مناهج التربية وانحسار مـستوى تطبيقهـا في الواقـع وضـعف صـلتها بالمعطيـات الإسـلامية في نقائهـا وصـفائها وعطائهـا المتجدد.

ولايخفى على أحد مايلاحظ من تراجع نسبة فعاليـة تـدريس مـواد التربيـة بمختلـف فروعهـا بمدارسنا ومعاهدنا، كما لايغيب عن الأذهان مدى استثقال التلاميـذ لمـادة التربيـة الإسـلامية في بعـض الأقطار العربية والإسلامية كما أنه ليس بخاف على أحد أيضًا تلك المحاولات «المبيتة» من أجل إقصاء تـدريس هـذه المـادة بالنـسبة لمـستويات التخـصص العلمي بالتعليم الثانوي فهل وعينا ما يحدق بالتربية الإسـلامية مـن مخـاطر وتحـديات تـشكل عقبـات حـاجزة أمـام كـل اسـتعادة لأسـس ودعـائم التربيـة

الإسلامية الصحيحة كما عرفها أسلافنا حيث تم إيجاز ازدواجية في النظام التعليمي وتفاقمت حدة الصراع بين عناصر ودعاة العصرنة والعلمنة ودعاة الأصالة.

أما أفكار الغرب فما فتئت تردَّد في إعجاب؛ بل هي مصدر الفكر التربوي عندنا حتى إنه في السنوات الأخيرة قد أضحى خريج التربية من معلم ومفتش اختصاصي في التربية الإسلامية يجهل من ثقافته الإسلامية بقدر مايعرف عن ثقافة الغرب وفكره، ولعل من أبرز ماتم تكريسه في هذا السياق وساهم بقوة في إقصاء وتهميش دور التربية الإسلامية في التغيير هو الفصل القاطع بين الإعداد الديني الإسلامي من جهة وإعداد الطاقات والخبرات العلمية من جهة أخرى وكأن المتخصص في العلوم الدقيقة والبحتة ليس في حاجة إلى تربية إسلامية يسترشد بها في توجهه العلمي، وهكذا يتم وبسهولة إفراغ الفكر التربوي الإسلامي من مضامينه الأصيلة وأهدافه المثلى استجابة لعملية الاحتواء التي مارستها الفلسفات التربوية المستوردة على مناهج وبرامج الدراسة والتعليم في بلادنا.

إن تدريس التربية الإسلامية في جميع المستويات والتخصصات أمر مطلوب ومنشود، وإن عملية تثبيت ركائز ومبادئ التربية الإسلامية في نفوس الطلبة والتلاميذ وجعلها ذات أثر واضح وملموس في سلوكاتهم وتوجهاتهم العلمية تشكل أهمية قصوى تتجاوز حدود ذلكم الكتاب المدرسي المعنون بكتاب «التربية الإسلامية» وتتجاوز بكثير تلك الحصة الزمنية الضئيلة المخصصة لها والتي تم احتجازها بعد طول أخذ ورد.

فالتربية الإسلامية ليست ذلك الكتاب المدرسي وليست مجموعة بحوث علمية في فروع الشريعة وإنما هي فلسفة كاملة تسهم في بنائها وتحقيقها وتجسيدها وتحويلها إلى واقع عملي متحرك، كلُّ المواد الدراسية أدبية كانت أو علمية، وكل المعارف والممارسات التي تبدأ مع الفرد ابتداء من طفولته وأثناء تلقيه التعليم الأولي ومرورا بكل موارده الثقافية والعلمية وانتهاء بمجموعة الخبرات المكتسبة التي تم تحصيلها.

* * *

الهوامش:

(١) من توصيات المؤتمر الأول للتعليم الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة العام ١٩٧٧.

(٢) مجلة «الأمة القطرية» ع ٢١/١٤٠٥، ص٤٤.

(٣) د. ماجد عرسان الكيلاني مقومات الشخصية المسلمة، كتاب الأمة رقم ٢٩، ص٤٢.

(٤) المرجع السابق ص١٤١.

(٥) د. عباس محجوب مشكلات الشباب الدوحة ١٤٠٦، ص٩٢.

* * *

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

وأما على الصعيد الداخلي، وبتعبير أدق على صعيد تعامل القائمين عليها فإن السلف الصالح وبُناتها الأولين كانوا يرونها سبيلا وحيدة للحفاظ على الكيان الإسلامي. والحق يقال: لولا أن الله تعالى تداركت رحمته الواسعة هذه الأمة وإيمانها وعقيدتها وثقافتها ومثلها بهذه المدارس والكتاتيب الدينية الإسلامية الأهلية الشعبية لأفلت شمس الإسلام وثقافتها قبل مدة من الزمان و لتكرر عليها استنساخ ما حدث في أرض الأندلس.

أسَّسَ هذه الكتاتيب والمدارس الدينية أولئك القومُ الأخيار المخلصون الأوفياء الناصحون لله ورسوله وللمسلمين ليواجهوا بها نداءات كبار منظري الاستعمار البريطاني و مخططاته الرامية إلى تحويل هذه البلاد بلدًا نصرانيًّا من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ولم يتورع الاستعمار البريطاني عن الإفصاح عن نواياه هذه حيث قال اللورد «ميكالي»: «إن الغرض من خطتنا التعليمية هو إنشاء جيل من الهند يكون هندي اللون والجنس، أوربي الفكر والذهن».

ولم يدَع الاستعمار البريطاني طريقًا لتجسيد هذه الخطة على أرض الواقع إلا سلكه، ولا حيلة إلا مارسها لإنجاحها. فتعرض آلاف؛ بل مئات الآلاف من علماء الإسلام وعامة المسلمين لاضطهادات الاستعمار الذي أقام مجزرةً رهيبةً في أدنى أرض الهند وأقصاها، وقودها كل من تسوِّل له نفسه الخروجَ على حكمه:

وليس لها غيرنا من وقود

فنحن اللهيب ونحن الحطب

فقتلوا تقتيلًا، وشرَّدوا تشريدًا، وطفحت الساحة بالأرامل والأيتام الذين لايجدون ملجأً يلجؤون إليه، ولا أقواتًا يقيمون بها أودهم، مشهد رهيب لايكاد يخطر على بالٍ.

وهنا استغل الاستعمار الجشع الماكر الخادع المتفنن في الصيد في الماء الكدر، و نادى: هاتوا أولادكم وبذوركم، نطعمهم جياعهم، ونكسو عريهم، ونعلم جهلتهم، ونربيهم و نثقفهم، وطبعًا حسب الخطة الاستعمارية المدروسة التي لمحنا إليها آنفًا.

وألقى الله تعالى في روع هؤلاء العلماء أن السبيل الوحيدة إلى الحفاظ على الكيان

الإسـلامي وعقيـدة المـسلمين وثقـافتهم وحـضارتهم هـي إنـشاء الكتاتيـب والمـدارس الدينية القائمة على التبرعات الشعبية.

والناس من بدء الخليقة بعضهم

في الصالحات لبعضهم أعوان

هذا لهذا مرشد أو مسند

وبمثل ذلك يكمل الإنسان

ففكروا وأطالوا التفكير، وذهبوا فيه كل مـذهب حتـى خرجـوا بفكـرة تـرد عـلى فكـرة اللورد «ميكالي» بالمثل، وتقول: إن غرضنا من التعلـيم إيجـاد جيـل هنـدي بلونـه وعنـصره، متنور قلبه وعقله بنور الإسلام، تموج نفسه بـالعواطف الإسـلامية ثقافـةً وسياسـةً وحضارةً.

وفي مثـل هـذه الأوضـاع ولتحقيـق مثـل هـذه الأهـداف الـسامية النبيلـة المخلـصة جـاء تأسيس هـذه الكتاتيـب والمـدارس الإسـلامية الأهليـة، ولعبـت دورًا لم تلعبـه حركـة مـن الحركات التعليمية الناشئة على أرض الهند منذ عهد الاستعمار وقبله حتى اليوم.

وقد صرحت مبادئ أول هـذه المـدارس والكتاتيب تأسيسًا والتي خرجت من رحمها مئـات الآلاف مـن الكتاتيـب والمـدارس في ربوع الهند وخارجها- بضرورة التحاشي عن قبـول التبرعـات الحكوميـة أيـا كانـت هـذه الحكومات، وبالتركيز على التبرعات الشعبية الهندية. واستمرت هـذه المـدارس والكتاتيـب الإسـلامية- باسـتثناء حفنـةٍ منهـا في العقـود الأخـيرة- عـلى النـأي بجانبهـا عـن قبـول المـساعدات الحكوميـة في مواصـلة نـشاطاتها التعليميـة والتثقيفيـة خوفًـا مـن تـدخل الحكومات المتعاقبة في هذه البلاد العلمانية في مناهجهـا، وحملهـا عـلى الرضـوخ لمطالبهـا بتحـديث مناهجهـا التعليميـة بـما قـد يمـس أهـدافها المنشودة، وتعرقـل مساعيها، وتقلـل مـن إنجازاتهـا وعطائهـا الثـر، و ربـما تقطـع أوصالها، وتفتُّ في عضدها؛ إيمانًا من القائمين على هذه المدارس بأن الحكومة تسترد أضعاف ما تعطي.

وهـذا مـا كانـت عليـه هـذه الكتاتيـب والمـدارس الإسـلامية الأهليـة القائمـة عـلى التبرعـات الـشعبية المـسلمة الهنديـة. ولعـل لنـا عـودة إلى الجانـب الآخـر مـن القـضية في حلقـة لاحقة بإذن الله تعالى.

المدارس في الهند بين ما كانت عليه وما صارت إليه

الدارس الممعن في تاريخ المدارس الهندية القائمة على التبرعات الشعبية الإسلامية الهندية بعد انقراض دولة الإسلام فيها، ومنذ تحرير البلاد من الاستعمار الذي جثم على صدرها نحو قرنين من الزمان أو قبله بقليل أو كثير، يرى البون شاسعًا والشقة بعيدةً بعدَ ما بين السماء والأرض، والشرق والغرب، بين ما كانت عليه هذه المدارس في الماضي وبين ما صارت إليه اليوم، سواء على صعيد تعامل الحكومات الهندية المتعاقبة طوال هذه الفترة أوحكومة الاستعمار ثم الحكومات الوطنية أو على صعيد مواقف أولياء أمورها والقائمين عليها، و رؤيتهم لها ونظرتها إليها.

أما على الصعيد الأول؛ فقد كانت الحكومات الهندية تعتبر في سياستها المعلنة المدارس والكتاتيب الإسلامية خلايا تعليمية تخفف الشيء الكثير من أعباء تعليم وتثقيف أبناء البلاد مما يقع على كاهل كل حكومة تحرص على الخير والرفاهية لشعبها والبقاء والازدهار لها، وتعدُّها خير سبيل و أرخصها إلى محو الأمية والقضاء عليها حتى كان كثير من أبناء الوطن من غير المسلمين يرسلون أولادهم إلى هذه المدارس والكتاتيب الدينية للدراسة فيها نظرًا إلى قوة مناهجها التعليمية، وتوفر الجو المناسب للتعليم بعيدًا عن الشكليات والمظاهر التي استوردها النظام التعليمي الغربي والذي حمله الاستعمار-الاستدمار- الغربي إلى هذه البلاد بخطة مدروسة بدقة وإمعان وتقصٍ طويل.

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري